كيف نحب الله

(٢)

الشيخ محمدمهدي الآصفي

الدعاء وقمته

لكثير من الأدعية قاع وقمة، أما القاع فهو يجسّد موقع العبد وما ركب من السيئات والذنوب، وأما القمة فهي تمثّل أمله وطموحه في الله سبحانه وتعالى. ولا حدّ لكرمه وجوده وخزائن رحمته. في «دعاء الأسحار» يذكر الإمام زين العابدين عليه‌السلام هذا الفاصل النفسي بين القاع والقمة، يقول عليه‌السلام: إذا رأيتُ مولايَ ذنوبي فزعتُ، وإذا رأيتُ كرمكَ طمعتُ.

ويقول عليه‌السلام في الدعاء: عظُم يا سيدي أملي وساء عملي فاعطني من عفوك بمقدار أملي ولاتؤاخذني بأسوأ عملي.

وفي الدعاء الذي علّمه أمير المؤمنين (علي بن أبي طالب) عليه‌السلام كميلَ بن زياد، يبدأ من القاع فيقول: اللهم لا أجد لذنوبي غافراً، ولا لقبائحي ساتراً، ولا لشيءٍ من عملي القبيح بالحسن مبدلاً غيرك... سبحانك وبحمدك ظلمت نفسي، وتجرّأت بجهلي، وسكنت إلى قديم ذكرك لي ومنّك عليّ، اللهم عظُم بلائي، وأفرط بي سوءُ حالي، وقصرت بي أعمالي وقعدت بي أغلالي، وحبسني عن نفعي بُعد أملي، وخدعتني الدنيا بغرورها، ونفسي بجنايتها ومطالي. فأسألك بعزتك أن لا يحجب عنك دعائي سوء عملي وفعالي ولاتفضحني بخفيِّ ما أطلعت عليه من سري....

وهذا «القاع» هو حضيض العبودية وما يكتنفها من سيئات، ثم ننتهي في أواخر الدعاء إلى قمة الطموح التي تجسد أمل العبد ورجاءه العظيم في رحمة الله الواسعة، فنقول: وهب لي الجد في خشيتك والدوام في الاتصال بخدمتك حتى أسرح إليك في ميادين السابقين، وأُسرع إليك في البارزين، وأشتاق إلى قربك في المشتاقين، وأدنوَ منك دنوَّ المخلصين... واجعلني من أحسن عبيدك نصيباً عندك، وأقربهم منزلة منك، وأخصّهم زلفة لديك، فإنه لا يُنال ذلك إلّا بفضلك.

وهذه الرحلة من «القاع» إلى «القمة» هي تعبير عن حركة الإنسان إلى الله وهي رحلة الأمل والرجاء والطموح، وعندما يكون أمل الإنسان ورجاؤه وطموحه في الله فلا حد لغاية هذه الرحلة.

الوسائل الثلاث

ويتوسل الإمام علي بن الحسين عليهما‌السلام إلى الله في هذه الرحلة بثلاث وسائل، وقد أمرنا الله تعالى أن نبتغي إليه الوسائل: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾[1].

﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة﴾[٢].

والوسائل التي يتوسل بها الإمام إلى الله في هذه الرحلة هي: الحاجة والسؤال والحب. ولله درّه من معلم في الدعاء، يعرف ماذا يطلب من الله تعالى، وكيف يطلب، وأين مواضع رحمة الله.

الوسيلة الأولى: الحاجة

فالحاجة نفسها من منازل رحمة الله، فإن الله تعالى كريم ينزل رحمته على خلقه حتى الحيوان والنبات لحاجتهم من دون سؤال وطلب. وليس معنى هذا الكلام نفي السؤال والطلب، فإن السؤال والطلب باب آخر من أبواب رحمة الله إلى جنب «الحاجة». فإذا عطش الناس سقاهم ربهم، وإذا جاعوا أطعمهم، وإذا عروا كساهم ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾[٣] حتى لو لم يعرفوا الله تعالى معرفة تامة، ولم يعرفوا كيف يدعونه، وماذا يطلبون منه:

يامن يعطي من سأله، يامن يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه تحنُّناً منه ورحمة[٤].

وفي مناجاة الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام نجد التفاتاً رائعاً لهذه النكتة الربانية في استنزال رحمة الله تعالى:

مولاي يا مولاي أنت المولى وأنا العبد، وهل يرحم العبدَ إلّا المولى؟!

مولاي يا مولاي أنت المالك وأنا المملوك، وهل يرحم المملوك إلّا المالك؟!

مولاي يا مولاي أنت العزيز وأنا الذليل، وهل يرحم الذليل إلّا العزيز؟!

مولاي يا مولاي أنت الخالق وأنا المخلوق، وهل يرحم المخلوق إلّا الخالق؟!

مولاي يا مولاي أنت العظيم وأنا الحقير، وهل يرحم الحقير إلّا العظيم؟!

مولاي يا مولاي أنت القوي وأنا الضعيف، وهل يرحم الضعيف إلّا القوي؟!

مولاي يا مولاي أنت الغنيّ وأنا الفقير، وهل يرحم الفقير إلّا الغني؟!

مولاي يا مولاي أنت المعطي وأنا السائل، وهل يرحم السائل إلّا المعطي؟!

مولاي يا مولاي أنت الحيّ وأنا الميت، وهل يرحم الميت إلّا الحيّ؟!

مولاي يا مولاي أنت الباقي وأنا الفاني، وهل يرحم الفاني إلّا الباقي؟!

مولاي يا مولاي أنت الدائم وأنا الزائل، وهل يرحم الزائل إلّا الدائم؟!

مولاي يا مولاي أنت الرازق وأنا المرزوق، وهل يرحم المرزوق إلّا الرازق؟!

مولاي يا مولاي أنت الجواد وأنا البخيل، وهل يرحم البخيل إلّا الجواد؟!

مولاي يا مولاي أنت المعافي وأنا المبتلى، وهل يرحم المبتلى إلّا المعافي؟!

مولاي يا مولاي أنت الكبير وأنا الصغير، وهل يرحم الصغير إلّا الكبير؟!

مولاي يا مولاي أنت الهادي وأنا الضالّ، وهل يرحم الضالّ إلّا الهادي؟!

مولاي يا مولاي أنت الغفور وأنا المذنب، وهل يرحم المذنب إلاّ الغفور؟!

مولاي يا مولاي أنت الدليل وأنا المتحير، وهل يرحم المتحير إلّا الدليل؟!

مولاي يا مولاي أنت الغالب وأنا المغلوب، وهل يرحم المغلوب إلّا الغالب؟!

مولاي يا مولاي أنت الرب وأنا المربوب، وهل يرحم المربوب إلّا الرب؟!

مولاي يا مولاي أنت المتكبّر وأنا الخاشع، وهل يرحم الخاشع إلّا المتكبّر؟!

مولاي يا مولاي ارحمني برحمتك، وارضَ عني بجودك وكرمك وفضلك، يا ذا الجود والإحسان، والطَّول والامتنان.

والإمام أمير المؤمنين عليه السلام في هذه الفقرات من المناجاة الرائعة يتوسل إلى الله تعالى بحاجته وفقره، ويضع حاجته وفقره في موضع استنزال رحمة الله.

فإن المخلوق يستنزل رحمة الخالق. والحقير يستنزل رحمة العظيم. والضعيف يستنزل رحمة القوي. والفقير يستنزل رحمة الغني. والمرزوق يستنزل رحمة الرازق. والمبتلى يستنزل رحمة المعافي. والضالّ يستنزل رحمة الهادي. والمذنب يستنزل رحمة الغفور. والمتحيّر يستنزل رحمة الدليل. والمغلوب يستنزل رحمة الغالب.

وهذه من السنن الكونية لله تعالى، ولن تتبدل سنن الله. فمهما كانت حاجة وفقر كان عندهما رحمة الله وفضله، وكما ينزل الماء إلى الموضع الهابط، تنزل رحمة الله تعالى على مواضع الحاجة، وذلك أنه تعالى كريم جواد، والكريم يرعى مواضع الحاجة ويخصّها برحمته.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء الأسحار الذي علّمه أبا حمزة الثمالي: «أعطني لفقري، وارحمني لضعفي، فيجعل من فقره وضعفه وسيلة يتوسل بهما إلى رحمة الله.

وطبيعي أن هذا الكلام لا يمكن أن يؤخذ على إطلاقه، وعلى طريقة العامل الواحد، فإن هناك عوامل أخرى تستنزل رحمة الله تعالى، وهناك موانع وحجب تحجب رحمة الله، وهناك عامل الابتلاء في سنن الله تعالى.

وعندما نقول أن الحاجة والفقر يستنزلان رحمة الله تعالى، ينبغي أن نأخذ هذا الكلام ضمن هذا النظام الشامل.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء الأسحار: «أعطني لفقري، وارحمني لضعفي» فيجعل من فقره وضعفه وسيلة لاستنزال رحمة الله تعالى. وفي القرآن الكريم نجد نماذج من عرض «الحاجة والفقر» لاستنزال رحمة الله تعالى، واستنزال الإجابة من عند الله، وللحاجة إجابة، كما للدعاء والسؤال إجابة، فإن عرض الحاجة عوض من الدعاء. وهذه نماذج يذكرها القرآن على لسان عباد الله الصالحين:

١ ـ من هذه النماذج حاجة العبد الصالح الممتحن والمبتلى أيوب عليه السلام عندما نادى الله تعالى، وهو في غمرة الابتلاء والمحنة: ﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسّني الضر وأنت أرحم الراحمين * فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾[٥].

ولا دعاء في هذه الفقرة التي يحكيها القرآن الكريم عن لسان هذا العبد الصالح المبتلى، ولكن الله يقول: ﴿فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر﴾

وكأن عرض الحاجة والفقر نحو من الدعاء.

٢ ـ العبد الصالح ذو النون يعرض فقره وحاجته وظلمه لنفسه على الله تعالى، وهو في ظلمات بطن الحوت في البحر: ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلّا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم، وكذلك ننجي المؤمنين﴾[٦].

والاستجابة كذلك ليست للطلب، إنما للحاجة والفقر، فلم يزد العبد الصالح ذو النون عليه السلام على هذه الكلمة ﴿سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ فاستجاب الله تعالى له، ونجاه من الغم ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم﴾.

٣ ـ ونلتقي في القرآن الكريم كليم الله موسى بن عمران وأخاه هارون عندما دعاهما ربهما ليحملا رسالته إلى فرعون: ﴿إذهبا إلى فرعون إنه طغى * فقولا له قولاً ليِّناً لعله يتذكر أو يخشى * قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾[٧]...

فلم يطلبا من الله تعالى أن يحميهما من فرعون وجلاوزته ويوفّر لهما الأمن الذي يحتاجونه. وإنما ذكرا لله ضعفهما وخوفهما من قوة فرعون وبطشه: ﴿إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾. فاستجاب الله لحاجتهما إلى الحماية والدعم والتأييد: ﴿قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾[٨].

٤ ـ والنموذج الرابع كلمة العبد الصالح نوح عليه السلام، عندما عرض على الله حاجته إلى إنقاذ ابنه من الطوفان: ﴿ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾[٩] وهو طلب في غاية الأدب من هذا العبد الصالح، فلم يطلب من الله تعالى إنقاذ ابنه، وإنما عرض حاجته إلى إنقاذ ابنه من الغرق فقط.

ومهما يكن من أمر فإن «الحاجة والفقر» من مواطن نزول رحمة الله تعالى، وحتى الحيوانات والنباتات تستنزل رحمة الله تعالى بحاجتها وفقرها، فإذا عطشت سقاها الله تعالى ورواها، وإذا جاعت أشبعها الله تعالى وأطعمها. وهذا باب واسع من المعرفة.

وفي تاريخ الأنبياء نلتقي بثلاثة مشاهد لاستجابة الله تعالى في وقت واحد؛ أحدهما استجابة للحاجة (الفقر غير الواعي) والآخر استجابة للدعاء والسؤال (الفقر الواعي). والثالث استجابة للسعي والحركة والعمل، وهو الموطن الثالث من مواطن الاستجابة، وذلك في قصة إسماعيل عليه السلام وأمه هاجر عندما ذهب إبراهيم عليه السلام بزوجته هاجر وابنه إسماعيل، وهو يومئذ طفل يرضع إلى وادٍ غير ذي زرع استجابة لأوامر الله تعالى، وقال: ﴿ربنا إني أسكنت من ذريتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم، ربنا ليقيموا الصلاة﴾[١٠] فلما نفد ما ترك لهما إبراهيم عليه السلام من الماء غلب العطش على الطفل الرضيع إسماعيل فأخذ يصرخ ويضرب بيديه ورجليه، وكانت أمه هاجر تسعى بحثاً عن الماء بين الصفا والمروة، وتصعد هذا الجبل حيناً تطلّ منه على الصحراء باحثة عن الماء، وتصعد الآخر حيناً، وهذا هو السعي. (الموطن الآخر لنزول الرحمة).

وفي ذلك كله تدعو الله تعالى أن يسقيها الماء

في هذه الصحراء القاحلة... وهذا هو الدعاء والسؤال (الفقر الواعي)، فاستجاب الله تعالى لحاجة الطفل وفقره، ولسعي الأم وحركتها، ودعائها وسؤالها، فتفجّرت الأرض من تحت أقدام الطفل الرضيع (إسماعيل) في موضع زمزم الحالي، فانحدرت الأم من الجبل إلى طفلها تسقيه وتجمع الماء وتحوطه لئلا يذهب الماء هدراً، وتقول زم... زم.

وهذا المشهد الذي يحييه الحجّاج ويعيدونه كل عام في أعمال الحج، مشهد من أروع مشاهد «علاقة العبد بالله تعالى».

وهذه العلاقة لها ثلاثة منطلقات:

١ ـ الحاجة والفقر.

٢ ـ السعي والحركة.

٣ ـ الدعاء والسؤال.

الوسيلة الثانية: الدعاء والسؤال

ونعود مرة أخرى إلى الحديث عن الوسائل التي يقدمها الإمام علي بن الحسين عليه‌السلام فنقول: الوسيلة الأولى التي يقدّمها الإمام زين العابدين عليه‌السلام بين يدي حاجاته إلى الله هو «فقره وحاجته». والوسيلة الثانية «الدعاء» وهو من مفاتيح رحمة الله تعالى. يقول تعالى: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾، ويقول: ﴿قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم﴾.

الوسيلة الثالثة: الحب

وإن العبد يستنزل من رحمة الله تعالى بالحب ما لا يستنزله بأمر آخر.

والآن تأمّلوا في هذه الوسائل الثلاث التي يتوسل بها الإمام زين العابدين عليه‌السلام إلى الله تعالى: رضاك بغيتي، ورؤيتك حاجتي، وعندك دواء علتي، وشفاء غلتي، وبرد لوعتي، وكشف كربتي. وهذه هي وسيلة «الحاجة والفقر».

جوارك طلبي، وقربك غاية سؤلي... فكن أنيسي في وحشتي، ومقيل عثرتي، وغافر زلتي، وقابل توبتي، ومجيب دعوتي، ووليّ عصمتي، ومغني فاقتي. وهذه وسيلة «الدعاء».

فأنت لا غيرك مرادي، ولك لا لسواك سهري وسهادي، ولقاؤك قرة عيني، ووصْلك منى نفسي، وإليك شوقي، وفي محبتك ولهي، وإلى هواك صبابتي. وهذه وسيلة الحب.

والآن نتأمل في هذه الفقرة من كلام الإمام، وهي رائعة من روائع الدعاء، وللدعاء روائع كما للفن والأدب، يقول عليه‌السلام:

فقد انقطعت إليك همّتي، وانصرفت نحوك رغبتي، فأنت لا غيرك مرادي ولك لا لسواك سهري وسهادي، ولقاؤك قرة عيني.

وفي «الانقطاع» ما ليس في «التعلق»، والإمام لا يقول: فقد تعلّقتْ بك همّتي لأن التعلّق بالله لا ينفي التعلق بغيره، وإن كان العبد صادقاً في تعلّقه بالله، بل يقول: «فقد انقطعت إليك همتي» فإن الانقطاع يتضمن معنى إيجابياً وسلبياً معاً:

انقطاع «من الخلق»، «إلى الله»، و «الانقطاع من الخلق» هو المعنى السلبي الذي يقصده الإمام في هذه الفقرة، و «إلى الله» هو المعنى الإيجابي الذي يقصده.

فإن الإخلاص في الحب «فصل» و «وصل». فصل مما عدا الله، ووصل بالله وبمن يحب وبما يأمر به، وهما وجهان لقضية واحدة.

فإن «الحب» إذا صفا وخلص يتضمن دائماً وجهين: «ولاء وبراءة» و «وصل وفصل»، وانقطاع من الخلق إلى الله.

والمعنى نفسه تتضمنه الفقرة الثانية: وانصرفتْ إليك رغبتي. فإن الانصراف إلى الله «إعراض»، و «إقبال» معاً، «إعراض» عما عدا الله، و «إقبال» على الله وما يأمر به ويحبه.

ثم يأتي التأكيد الثالث لهذه الحقيقة، وهو أبلغها جميعاً، ويحمل من معاني الحب والانصراف إلى الله، والانقطاع عما عداه، ما يعجز عن أدائه ووصفه التعبير: «فأنت لا غيرك مرادي، ولك لا لسواك سهري وسهادي».

و «السهر والسهاد» بخلاف النوم، إلّا أن «السهر» هو قيام الليل في حالة «الأنس»، و«السهاد» نحو من الأرق ينتاب الإنسان عندما يشغله شيء يهمه ويسلب عنه النوم، وهو هنا الحنين والشوق إلى الله.

إذن هما يمثلان حالتين من حالات الحب: «الأنس والشوق»، أنس بذكر الله وبحضوره عند العبد، عندما يحس العبد بحضور الله، في دعائه وذكره، ومناجاته، وصلاته، وشوق إلى لقاء الله. والمحب يشعر بهذا وذاك معاً عندما يقف بين يدي الله تعالى وهما ينفيان عنه النوم ويؤرقانه، حين يستسلم الناس للنوم ويخلدون إلى الراحة ويفقدون وعيهم وشعورهم.

والنوم حاجة ـ من دون شك ـ يأخذ الناس جميعاً حظهم منه، الصالحون والطالحون، حتى الأنبياء والصديقون ينامون.

ولكن فرق هائل بين من يأخذ للنوم حاجته من النوم، كما يأخذ حاجته من الأكل والشرب وبين من يستسلم للنوم ويتحكم فيه النوم.

أما أولياء الله فلا يستسلمون للنوم، وإنما عندهم إلى النوم حاجة يأخذون منه حظهم. ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا ينام إلّا هنيئة حتى يقوم بين يدي الله، وكان يأمر أن يوضع وضوؤه عند رأسه ليقوم بين يدي الله، كلما أخذ نصيباً من النوم لسدّ الحاجة الطبيعية.

ولقد كان يفرش له الفراش الوثير والمريح، فيأمر برفعه، لئلا يستدرجه ذلك لاستسلام للنوم.

وكان ينام على الحصير الخشن حتى ينبت الحصير على جنبه لكيلا يستغرقه النوم.

وقد أودع الله تعالى في هدأة الليل من كنوز مناجاته وذكره وقربه ما ليس في النهار. وللليل رجال، كما للنهار، رجال يقومون إذا نام الناس، وينشطون إذا خمل الناس، ويعرجون إلى الله إذا استسلم الناس للنوم وسقطوا على فراشهم.

ولليل دولة كما للنهار دولة، وفي الليل كنوز كما في النهار كنوز، والناس يعرفون دولة النهار ورجاله وكنوزه، وقليل من الناس من يعرف قيمة دولة الليل وكنوزه ورجاله.

فإذا أخذ الإنسان من دولتي الليل والنهار معاً كان سوياً راشداً متوازناً. ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من رجال الليل والنهار معاً، يأخذ بهذا وذاك بصورة متوازنة، يأخذ من الليل

الحب والإخلاص والذكر، ويأخذ من النهار القوة والسلطان والمال، لتمكين الدعوة وترسيخها، وكانت ناشئة الليل تعينه، وتمكنه من حمل عبء الرسالة الثقيل. يقول تعالى: ﴿يا أيها المزّمل * قم الليل إلّا قليلاً * نصفه أو انقص منه قليلاً * أو زد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً * إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً * إن ناشئة الليل هي أشدّ وطئاً وأقوم قيلاً * إن لك في النهار سبحاً طويلاً﴾[١١].

ثمة حديث قدسي جليل يتحدث عن ناشئة الليل، يقول تعالى فيما أوحاه إلى بعض الصديقين: إن لي عباداً من عبادي يحبونني فأحبّهم، ويشتاقون إليَّ وأشتاق إليهم، ويذكرونني وأذكرهم، وينظرون إليَّ وأنظر إليهم، وإن حذوت طريقهم أحبّوك، وإن عدلت عنهم مقتوك. قال: يا رب وما علامتهم؟ قال: يراعون الظلال بالنهار، كما يراعي الشفيق غنمه، ويحنّون إلى غروب الشمس، كما يحنّ الطير إلى وكره عند الغروب، فإذا جنّهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الأسرّة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إليّ أقدامهم، وافترشوا إليّ وجوههم، وناجوني بكلامي، وعلّقوا إليّ بأنغامي، فمن صارخ وباكٍ، ومتأوّهٍ شاكٍ، وبين قاعد وقائم وراكع وساجد، بعيني ما يتحمّلون من أجلي، وبسمعي ما يشكون من حبّي، أول ما أعطيهم ثلاث:

١ ـ أقذف من نوري في قلوبهم، فيخبرون عني، كما أخبر عنهم.

٢ ـ والثانية: لو كانت السماوات والأرض في موازينهم لاستقللتها لهم.

٣ ـ والثالثة: أقبل بوجهي عليهم، أفترى من أقبلت بوجهي عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟!

وروي عن الإمام الباقر عليه‌السلام:

كان مما أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران: كذب من زعم أنه يحبني، فإذا جنه الليل نام عني. يابن عمران؛ لو رأيت الذين يقومون لي في الدجى وقد مثلت نفسي بين أعينهم، يخاطبونني، وقد جللت عن المشاهدة. ويكلّمونني وقد عززت عن الحضور. يابن عمران: هب لي من عينيك الدموع، ومن قلبك الخشوع، ثم ادعني في ظلمة الليالي تجدني قريباً مجيباً.

وفي خطبة المتقين من نهج البلاغة يصف الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حال أولياء الله إذا جنّهم الليل في مناجاتهم وذكرهم ووقوفهم بين يدي ربهم فيقول عليه‌السلام:

أما الليل فصافّون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلاً، يحزّنون به أنفسهم، ويستثيرون دواء دائهم، فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلّعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنّوا أنها نصب أعينهم، وإذا مرّوا بآية فيها تخويف، أصغوا إليها مسامع قلوبهم وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم، فهم حانون على أوساطهم مفترشون لجباههم وأكفّهم وركبهم وأطراف أقدامهم يطلبون إلى الله تعالى فكاك رقابهم.

وأما النهار فحلماء، علماء، أبرار، أتقياء، قد براهم الخوف بري القداح...»[١٢].

صور أخرى من صور الشوق إلى الله في مناجاة الإمام زين العابدين

«إلهي فاجعلنا من الذين ترسَّخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم، فهم إلى أوكار الأفكار يأوون، وفي رياض القرب والمكاشفة يرتعون، ومن حياض المحبة بكأس الملاطفة يكرعون، وشرايع المصافاة يردون، قد كُشف الغطاء عن أبصارهم، وانجلت ظلمة الريب عن عقائدهم وضمائرهم، وانتفت مخالجة الشك عن قلوبهم وسرائرهم، وانشرحت بتحقيق المعزفة صدورهم، وعذب في معين المعاملة شربهم، وطاب في مجلس الأنس سرهم، وأمن في موطن المخافة سربهم، واطمأنت بالرجوع إلى رب الأرباب أنفسهم، وتيقّنت بالفوز والفلاح أرواحهم، وقرّت بالنظر إلى محبوبهم أعينهم، واستقرّ بإدراك السؤل ونيل المأمول قرارهم، وربحت في بيع الدنيا بالآخرة تجارتهم...

... إلهي ما ألذّ خواطر الإلهام بك على القلوب، وما أحلى المسير إليك بالأوهام في مسالك الغيوب، وما أطيب طعم حبك، وما أعذب شرب قربك. فأعذنا من طردك وإبعادك، واجعلنا من أخصّ عارفيك وأصلح عبّادك، وأصدق طائعيك وأخلص عبادك».

ولا يسعنا الوقت أن نقف للتأمل عند هذه المناجاة التي هي رائعة من روائع أهل البيت عليهم السلام في الدعاء والمناجاة، ونخرج عن الصدد والغاية من هذه الرسالة، ولكن أود أن أقف قليلاً عند هذه الجملة التي يبدأ بها الإمام علي بن الحسين عليه السلام مناجاته: «إلهي واجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم»، فإن صدور أولياء الله كما يظهر من كلام الإمام حدائق ذات بهجة، وذات ثمار طيبة. وإن صدور الناس على أنحاء:

فمن الصدور مكاتب ومدارس للعلم، والعلم خير ونور، ولكن على أن يبقى الصدر حدائق للشوق إلى الله.

ومن الصدور متاجر وبنوك وبورصات للمال تزدحم بالأرقام وجداول الإحصاء وحسابات الربح والخسارة. والمال والتجارة خير، شريطة أن لا يكونا الشغل الشاغل لقلب الإنسان، ولا يكونا همه الذي لا يفارقه.

ومن الصدور أراض سبخة ينبت فيها الشوك والحنظل، والسموم والأحقاد، والصراع على المال والسلطان والكيد بالآخرين.

ومن الصدور ملاهٍ وملاعب. والدنيا لهو ولعب لطائفة واسعة من الناس.

ومن الناس من ينشطر صدره إلى شطرين: شطر للسموم والأحقاد والمكر والكيد، والشطر الآخر للهو واللعب، فإذا أقلقه الشطر الأول وسلب راحته واستقراره، لجأ إلى الشطر الثاني، واستعان باللهو، لكي ينقذ نفسه من عذاب الشطر الأول. وأما صدور أولياء الله، فهي حدائق الشوق

ـ كما يقول الإمام زين العابدين ـ ذات بهجة وثمار طيبة. وقد ترسخت فيها أشجار الشوق وامتدت فيها جذورها، فليس الشوق إلى الله فيها أمراً طارئاً يزول إذا ألحّ عليه الهوى أو أقبلت وتزيّنت له الدنيا، ولا يخفّ هذا الشوق ولا تذبل أوراقه إذا ضاقت على صاحبه الدنيا، وتراكمت عليه الابتلاءات؛ فإنّ أشجار الشوق إذا كانت راسخة في هذه الصدور، تبقى مورقة خضراء مثمرة رغم كل العقبات والمتاعب.

وحالة الشوق حالة خفة الروح، وهي حالة معاكسة للتثاقل والركون إلى الدنيا التي تتحدث عنها الآية الكريمة: ﴿ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟!﴾[١٣].

إن النفس تثقل، وتترهل، كلما تعلق الإنسان بالدنيا، ورضيها، وركن إليها. فإذا تحرر من الدنيا وانتزع نفسه[١٤] منها خفّ، فجذبه حب الله تعالى والشوق إليه. ولنقف عند هذا الحد من استعراض صور الحب والشوق والأنس من نصوص أدعية أهل البيت عليهم السلام وننصرف إلى غير ذلك من مباحث الحب الإلهي.

توحيد الحب

عندما نستعرض النصوص الإسلامية في الحب الإلهي من الكتاب والسنّة نجدها تحدد لنا ضوابط ثلاثة في مسألة الحب:

أولاً: تفضيل حب الله

لابدّ أن يكون الإنسان أشد حباً لله من كل أحد ومن كل شيء، وأن يكون حب الله تعالى هو أمكن شيء في نفسه، يقول تعالى:

﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[١٥].

فلا ينهى الله تعالى عن حب الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشائر ما لم يعادوا الله ورسوله، ولا ينهى عن حب المال والتجارة والمساكن ما لم يكن عن حرام... وإنما ينهى أن يكون حب هذه الأمور أقوى وأشد عند المؤمن من حب الله ورسوله وجهاد في سبيله، ويقول تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله﴾[١٦].

والآية الثانية تكمل الآية الأولى، فلا ينبغي أن يكون في الكون شيء أحب إلى قلب المؤمن من الله. وعليه أن يجعل لحب الله المنزلة العليا من نفسه، وأن يمكّن حب الله من نفسه أكثر من أي شيء آخر مهما كان. وما لم يكن لحب الله على قلب المؤمن مثل هذه الهيمنة القوية والفاعلة لا يكون الإنسان مؤمناً حقّاً.

وليس من ضير على المؤمن أن يحب غير الله (أحداً أو شيئاً) مالم يسخط الله، ولكن البأس كل البأس أن يكون حبه له أشد من حبه لله؛ فإن الله تعالى يقول:

﴿زيّن للناس حب الشهوات من النساء

والبـنين والقـناطير المـقنطرة مـن الذهب والفـضة والخـيل المسـومة والأنـعام والحرث﴾[١٧].

وليس على المؤمن بأس أن يـحب كـل ذلك مالم يحرمه الله... إذ كان حبه أشد وأقوى حـتى من حبه لنفسه. فيكون الحب الإلهي أقوى وأنفذ في نفس المؤمن من أي حب آخر وعلاقة أخرى. فـقد روي عـن الإمـام الصـادق عـليه‌السلام: «لايمحض رجل الإيمان بـالله حـتى يكـون الله أحب إليه من نفسه وأبـيه وأمـه وولده وأهـله وماله ومن الناس كلهم»[١٨].

وليست هيمنة الحب الإلهي على قلب المؤمن مسألة نظرية معزولة عن حياته وحبه وعلاقاته.

فـللحب مـتطلبات ومسـتلزمات وتـبعات، ومـا لم يـقترن الحب بـها لن يكـون مـن الحب الصادق: ﴿قـل إن كـنتم تـحبون الله فـاتبعوني يحببكم الله﴾[١٩].

وعـندما يـتعارض حب وحب فـي قـلب المؤمن، وتتعارض أحكام ومتطلبات كل واحـد منهما، يكون حب الله أقوى في نفسه وأكثر نفوذاً وفاعلية، وتكون اسـتجابته لحب الله دون غـيره علامة صدقه في الحب.

وقد ورد هذا المعنى في كثير مـن النـصوص الإسلامية، وعن رسول الله صـلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم فـيما روي من الدعاء: اللهم إني أسألك حـبك وحب من يحبك، والعـمل الذي يـبلّغني حـبك، اللـهم اجعل حبك أحب إليّ من نفسي وأهلي[٢٠].

وورد مثله عن داود عليه‌السلام[٢١]

وورد أيضاً عن رسول الله صـلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: **اللهم اجـعل حـبك أحب الأشـياء إلي، واجـعل خشيتك أخوف الأشـياء عـندي، واقـطع عـني حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك، وإذا أقررت أعين أهل الدنيا من دنياهم فـاقرر عـيني مـن عبادتك**[٢٢].

ثانياً: تحكيم حب الله

ينبغي للإنسان تحكيم الحب الإلهي على كل علاقاته وحياته وميوله القلبية، فـيكون حب الله تعالى حاكماً على قلبه، ومتصرفاً فـي مشـاعره وعواطفه وأحاسيسه، فيلغى من قلب المؤمن ما لا ينسجم معه من الحب والكره، وينبت في قلبه ما يتطلبه حب الله من حب وكره، ويطرد من قلبه ما لا يرضاه الله تعالى من حب. فـليس مـحظوراً على الإنسان أن يحب ويكره، ولكن عليه أن يضع الحب والبغض والرضا والغضب حيث يـريد الله، وحيث يقره على ذلك. فما كـان مـن الحب فـي امتداد حب الله تعالى فإن الله يأمر به، وما كان من الحب لا ينهى عنه الله تعالى فإن الإسلام يقرّه، وما كان من الكره لأعداء الله فإن الله يأمر به، وما كان منه مما لا ينهى عنه الله فإن الإسلام يقره.

فليس على المؤمن بأس ـ إذن ـ من أن يحب لنفسه... ولكن على أن لا يكون حبه لغير الله أشد من حبه لله ـ وهذا ما تقدم في الأمر الأول ـ وعلى أن لا يعارض حبه لله، فما كان من الحب يعارض حب المؤمن لله فـإن الإسـلام يـلغيه مـن حـياة المؤمن، وهذا هو الأمر الثاني، يقول تعالى:

﴿يا أيـها الذيـن آمـنوا لا تـتخذوا آبـاءكم وإخـوانكـم أوليـاء إن اسـتحبوا الكـفر عـلى

الإيمان، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾[٢٣].

فلم يكن المؤمنون الذين خاطبهم الله بهذه الآية، يحبون آباءهم وإخوانهم أشد من حبهم لله، ولكنهم يحبونهم رغم كفرهم، ويضمرون لهم المودة والحب والولاء، فنهاهم الله عن ذلك، وعدّ حبهم والولاء لهم من الظلم. وهذه الآية نزلت في «حاطب بن أبي بلتعة»[٢٤] الذي أرسل إلى قومه من المشركين يخبرهم بقدوم رسول‌الله صلى‌الله عليه وآله‌وسلم. ولانشك في أن حاطب بن أبي بلتعة كان مؤمناً، ولم يكن حبه لأهله بأشد من حبه لله، إلّا أنه كان يحب أهله وقومه رغم عدائهم لله ورسوله.

ولا يتسع قلب لحبين يتعارضان في وقت واحد، حب الله وحب أعداء الله، فإذا أخلص قلبه في الحب والبغض وحكم الله تعالى في كل تعلقاته النفسية، فليس عليه من بأس بعد ذلك أن يحب أو يكره، كلما توافرت الضوابط العقائدية للحب والكره لديه.

وليس للمؤمن أن يرسل عواطفه كما يشاء وأين يشاء، ولا أن يمدّ صلاته وعلاقاته كما يريد، بل يجب عليه أن يحكّم حبه لله في صِلاته، وعلاقاته، وميوله النفسية بشكل دقيق، إن كان صادقاً في حبّه لله. ولقد كان المسلمون الأوائل يقتلون آباءهم وإخوانهم وأعمامهم من المشركين، فلا يترددون في شيء من ذلك، ولا يتزلزل لهم قدم، ولن يكون الولاء والحب لله صادقاً إلّا عندما يمكن صاحبه من التخلي عن كل حبه وبغضه وميوله النفسية وعلاقاته، لله بشكل مطلق، ويتحرر من كل الوشائج النفسية التي تربطه بهذا أو ذاك بشكل كامل. يقول الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه‌السلام:

«ولقد كنا مع رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم نقتل آباءنا، وأبناءنا، وإخواننا، وأعمامنا... ما يزيدنا ذلك إلّا إيماناً وتسليماً، ومضياً على اللقم، وصبراً على مضض الألم، وجدّاً في جهاد العدو ـ ثم يقول عليه‌السلام ـ: فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدوّنا الكبت، وأنزل علينا النصر حتى استقر الإسلام»[٢٥].

وتستوقفنا في هذا الحديث فقرتان:

الأولى قوله عليه‌السلام: «ما يزيدنا ذلك إلّا إيماناً وتسليماً». وهذه الفقرة تحكي عن سنة من سنن الله تعالى هي سنة «العلاقة بين العطاء وبين الإيمان والحب»، وهذه سنة لا يعيها إلّا قلة من الناس. والناس عادة يتصورون الأمر معكوساً، فيخالون أن المعاناة وتحمل الابتلاء يستنفد صبر الإنسان ومقاومته، وما وراء هذا الصبر والمقاومة من إيمان وحب، يبعثان على الصبر والمقاومة. بينما الأمر على العكس تماماً، فإن المعاناة وتحمل الآلام والابتلاء، وقتل الآباء والأبناء في الله يزيد في قدرة الإنسان وحبه لله.

والفقرة الثانية التي تستوقفنا في هذا الحديث هي هذه العلاقة الوشيجة بين الصدق من الحب والولاء والنصر: «فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدوّنا الكبت». فإن النصر لا ينزل إلّا حيث يكون الصدق في الولاء والموقف، ولا تنفصل الساحة العسكرية في نتائجها عما يستقر في القلوب من الصدق في الحب والولاء. فلن يكون

المؤمن إذن صادقاً في حبه وولائه لله إلّا إذا كان قادراً على أن يحكم ولاءه في كل علاقاته وصِلاته.

خارطة الحب والبغض

إن حب الله يرسم للمؤمن خارطة دقيقة جداً لعلاقاته الاجتماعية وصِلاته وأعدائه وأصدقائه. ومن خلال هذه الخارطة يستطيع المؤمن أن يشخص بدقة كاملة، أعداءه عن أصدقائه، وأهله عن الغرباء.

وإن أمر هذه الخارطة لعجيب، تقرّب البعيد، وتبعّد القريب، وتدخل الخارج وتخرج الداخل، فيخرج ابن نوح عليه‌السلام من أهل نوح، فيكون غريباً عنه، وينهى الله تعالى نبيه نوح عليه‌السلام أن يسأله عن ابنه ﴿ونادى نوح ربه، فقال: رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين * قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾[٢٦]. ويدخل سلمان الفارسي في زمرة آل محمد، فيتحول من سلمان الفارسي إلى سلمان المحمدي، فيقول رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: سلمان منّا أهل البيت[٢٧].

يقول الشيخ المفيد: «جرى ذكر سلمان وذكر جعفر الطيار بين يدي جعفر بن محمد عليه‌السلام، وهو متكئ، ففضل بعضهم جعفراً عليه، وهناك أبو بصير، فقال بعضهم: إن سلمان كان مجوسياً ثم أسلم، فاستوى أبو عبدالله جالساً مغضباً وقال: يا أبا بصير جعله علوياً بعد أن كان مجوسياً، وقرشياً بعد أن كان فارسياً، فصلوات الله على سلمان، وإن لجعفر شأناً عند الله يطير مع الملائكة في الجنة»[٢٨].

إن هذه الخارطة يختلف أمرها عما يألفه الناس من خرائط الحب والبغض والأعداء والأصدقاء، وإنها لتصنف الناس إلى جبهتين اثنتين، جبهة أولياء الله وأنصاره وأحبائه، وجبهة أعداء الله ومناوئيه؛ على اختلاف درجات الناس في هاتين الجبهتين في حب الله وعداوته.

الحب في الله والبغض في الله

وليس للمؤمن الخيار المطلق في هواه وحبه، بل عليه أن يتبع في حبه وهواه وميوله وعلاقاته النقاط الحمراء والنقاط الخضراء من هذه الخارطة بشكل دقيق. فيضع ولاءه وحبه حيث يأمره الله، وحيث يحب الله، ويتبرأ عمن يتبرأ الله تعالى منه. ولن يصدق في إيمانه، ولن يبلغ محض الإيمان من دون هذا الولاء والحب لأحباء الله والبراءة والعداء لأعداء الله، والمواقف الإيجابية الثابتة حيث يحب الله، والمواقف السلبية حيث يأمر الله. فيحب بحب الله كل من أحب الله، ويبغض كل من يبغضه الله. حتى النبي صلى‌الله‌عليه وآله‌وسلم يحبه لحب الله، وبحبه لله. يقول صلى‌الله‌عليه وآله‌وسلم: أحبوا الله لما يغذوكم من نعمة، فأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي[٢٩].

وهكذا يتسلسل الحب في الله على هذا الامتداد، ويشمل كل أولياء الله وعباده الصالحين، كما يتسلسل الكره والعداء والبغضاء في الخط الآخر المعادي لله ولرسوله.

وعندما نمعن النظر في النصوص الإسلامية الواردة في الحب والبغض في الله نجد أنها تقسم الساحة إلى شطرين أساسيين وجبهتين متقابلتين: جبهة أولياء الله وأحبائه على اختلاف درجاتهم في حب الله، وجبهة أعداء الله على اختلاف درجاتهم في العداء والحب.

وليس للمؤمن خيار في هذه الساحة، بل عليه أن يحدد مواقفه وتحركاته وميوله النفسية ضمن ضوابط الحب في الله والبغض في الله. ولايكون له من الأعمال الصالحة رغم كثرتها، مايرفعه إلى الله أفضل من أن يحب في الله ويبغض في الله.

وإليك هذه الباقة من الروايات:

(١) عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أنه قال لبعض أصحابه ذات يوم: **يا عبدالله أحبب في الله، وأبغض في الله، ووال في الله، وعاد في الله، فإنه لا تنال ولاية الله إلّا بذلك، ولا يجد رجل طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصيامه حتى يكون كذلك**[٣٠].

٢ ـ روى البرقي في المحاسن عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبدالله عليه‌السلام يقول: **إن المتحابين في الله يوم القيامة على منابر من نور، قد أضاء نور أجسادهم ونور منابرهم كل شيء، حتى يُعرفوا به، فيقال: هؤلاء المتحابون في الله**[٣١].

٣ ـ وعن أبي عبدالله الصادق عليه‌السلام قال: **إن أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله، وتبغض في الله، وتعطي في الله، وتمنع في الله عز وجل**[٣٢]. فلا ينال أحد ولاية الله إذن إلّا إذا أخلص قلبه لله، فكان في الله حبه وبغضه وقربه وبعده وولايته وبراءته، ولن يكون بين عرى الإيمان ـ وهي كثيرة ـ عروة أوثق من الحب في الله والبغض في الله.

٤ ـ وعن أبي عبدالله الصادق عليه‌السلام: من أحب كافراً فقد أبغض الله، ومن أبغض كافراً فقد أحب الله، ثم قال عليه‌السلام: صديق عدو الله ـ واللهِ ـ عدو الله[٣٣].

٥ ـ وعن أبي جعفر الثاني قال: أوحى الله إلى بعض الأنبياء عليهم‌السلام: أما زهدك في الدنيا فتعجلك الراحة، وأما انقطاعك إليّ فتعززك بي، ولكن هل عاديت لي عدواً أو واليت لي ولياً[٣٤].

٦ ـ وعن أبي عبدالله الصادق عليه‌السلام: من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فهو من كمل إيمانه[٣٥].

٧ ـ وعن أبي جعفر عليه‌السلام عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: ودّ المؤمن للمؤمن في الله من أعظم شعب الإيمان، ألا ومن أحب في الله، وأبغض في الله، وأعطى في الله، ومنع في الله... فهو من أصفياء الله[٣٦].

٨ ـ عن أبي عبدالله الصادق عليه‌السلام قال: قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لأصحابه: أي عرى الإيمان أوثق؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم. وقال بعضهم: الصلاة، وقال بعضهم: الزكاة، وقال بعضهم: الصيام. وقال بعضهم: الحج والعمرة، وقال بعضهم: الجهاد. فقال رسول الله صلى‌الله‌عليه وآله‌وسلم: لكل ما قلتم فضل، وليس به، ولكن أوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبغض في

الله، وتولي أولياء الله، والتبري من أعداء الله[٣٧].

٩ ـ وعن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: قال: إذا جمع الله عز وجل الأولين والآخرين قام مناد فنادى [بحيث] يسمع الناس، فيقول: أين المتحابون في الله؟ فيقوم عنق من الناس، فيقول لهم: اذهبوا إلى الجنة بغير حساب.

قال: فتلقاهم الملائكة، فيقولون إلى أين؟

فيقولون: إلى الجنة بغير حساب.

قال: فيقولون: فأي ضرب أنتم من الناس؟

فيقولون: نحن المتحابون في الله.

قال: فيقولون: وأي شيء كانت أعمالكم؟

قالوا: كنا نحب في الله ونبغض في الله.

قال: فيقولون: نعم أجر العاملين[٣٨].

١٠ ـ عن أبي جعفر عليه السلام: إذا أردت أن تعلم أن فيك خيراً فانظر إلى قلبك، فإن كان يحب أهل طاعة الله عزوجل ويبغض أهل معصيته ففيك خير والله يحبك، وإذا كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته، فليس فيك خير، والله يبغضك، والمرء مع من أحب[٣٩].

١١ ـ وعن أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال: كل من لم يحب على الدين، ولم يبغض على الدين، فلا دين له[٤٠].

١٢ ـ وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لو أن عبدين تحابا في الله أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب لجمع الله بينهما يوم القيامة.

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله.

وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الحب في الله فريضة، والبغض في الله فريضة[٤١].

١٣ ـ وروي أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: هل عملت لي عملاً؟ قال: صليت لك، وصمت وتصدقت، وذكرت لك، قال الله تبارك وتعالى: أما الصلاة فلك برهان[٤٢]، والصوم جنة، والصدقة ظل، والذكر نور. فأي عمل عملت لي؟ قال موسى عليه السلام: دلني على عمل هو لك؟ قال لموسى: هل واليت لي ولياً، وهل عاديت لي عدواً قط؟ فعلم موسى أن أفضل الأعمال الحب في الله والبغض في الله[٤٣].

خارطة الولاء والبراءة في النفس والمجتمع

هذه باقة من النصوص الإسلامية تحدد بشكل دقيق علاقات الإنسان المؤمن الاجتماعية والأسرية وميوله ورغباته النفسية وترسم له خارطة دقيقة لساحة المجتمع الإنساني بكل جبهاته المتضاربة والتواءاته السياسية والعقائدية، وما بين هذه الجبهات والفئات من قرب ومن بعد، وما بها من هدى وضلال، واستقامة واعوجاج، وما لديها من انقياد للحق، وعناد وتمرد عليه، وما عليه من بصيرة أو ضلال، وعمى... إن هذه الساحة المليئة بالمتناقضات والحروب والصراعات والتحالف واللقاءات هي ساحة عملنا وتحركنا...

ومن دون وجود دليل خبير بمسالك هذه الساحة ومداخلها، والمناطق المحظورة والمناطق المجازة فيها لا نستطيع أن نتحرك فيها،

ولا أن نميز بين أعدائنا وأصدقائنا. وإن الحب في الله يرسم خارطة دقيقة لهذه الساحة، نستطيع أن نميز فيها بدقة الأصدقاء عن الأعداء، ونعرف أين نضع ثقتنا ومن أين نسحب الثقة، وإلى من نركن وعمن نحذر، وإلى من نمد أيدينا، وعمن نسحب أيدينا، ومع من نتعامل بحذر.

فلقد شطت هذه الأمة، والتبس عليها الأمر طويلاً، وركنت كثيراً إلى الذين نهى الله عن الركون إليهم، وأقامت علاقات وثيقة مع الذين نهى الله عن مودتهم، ووصلت حبلها بحبل أعداء الله، وقطعت حبلها عن حبل أولياء الله، ومالت إلى أقصى اليمين طوراً، وإلى أقصى اليسار طوراً، وصفقت لأعداء الله ورسوله، ومالت مع كل ريح... كل ذلك في غياب الضوابط والمعايير الإسلامية في الحب والبغض والتقرب والتباعد.

وإن ضوابط الولاء والحب في الله لتعطينا خطوطاً دقيقة جداً للعلاقات والصلات والوشائج، وترسم لنا الخارطة السياسية للساحة البشرية عموماً، وتميز لنا فيها أصدقاءنا عن أعدائنا. كما أنها ترسم لنفوسنا الحدود الدقيقة لميولها وتعلقاتها، ورغباتها، وحبها وبغضها.

إن هذه الخارطة تقسم الساحة البشرية إلى جزئين متمايزين (الولاء والبراءة)، ولكل من الولاء والبراءة مساحة خاصة بها، ولكل من هاتين المساحتين أحكامهما الخاصّة بها، وإن ضوابط الولاء والحب في الله تحدّد بصورة دقيقة مساحة كل من الولاء والبراءة، والأحكام الخاصّة لكل منهما.

وضابطة الولاء والبراءة واضحة... إنها الحب في الله والبغض في الله. إن أولياءنا وأصدقاءنا في هذه الساحة هم المؤمنون، وإن أعداءنا الذين نحاربهم هم أعداء الله ورسوله وأئمة الكفر.

إن المساحة المؤمنة من المجموعة البشرية بعضهم من بعض، وبعضهم أولياء بعض، يجمعهم الولاء لله وللرسول، وحب الله وحب رسوله، ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذين آووا ونصروا... أولئك بعضهم أولياء بعض﴾[٤٤].

وهذه هي مساحة الولاء في الساحة البشرية. ومساحة البراءة على الأرض، وفي المجتمع هي المساحة التي تضم أعداء الله ورسوله من الكفار، والمشركين ومن أئمة الكفر من الذين يحادون الله ورسوله، ويشاقون الله ورسوله، ويصدّون الناس عن دين الله ويحاربون الله ورسوله.

هؤلاء يشكلون جبهة متميزة على وجه الأرض تقف دائماً في قبال الجماعة المؤمنة، وتضمر لها الكيد والمكر، ولن يهدأ لها بال ما كان يقوم لهذا الدين قائمة على وجه الأرض: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾[٤٥].

هؤلاء بعضهم أولياء بعض، وبعضهم من بعض، أمة واحدة في قبال الأمة المسلمة... والموقف منهم المفاصلة التامة، ليست بيننا وبينهم صلة أو مودة. ومن يتخذهم منا أولياء، فهو منهم، وينقطع ما بيننا وبينه من وشيجة الولاء.

والقرآن الكريم صريح وحاسم في تقرير هذه الحقيقة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن

يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[٤٦].

مساحة الحب والبغض للنفس

وما سبق من الحب والبغض هو الحب النابع من الولاء، والبغض النابع من البراءة. إلّا أن الإسلام لا يمنع المسلم من أن يحب لنفسه، مساحة محدودة، وإن كان يسعى لتهذيب القلب المؤمن حتى لا يحب إلّا في الله ولا يبغض إلّا في الله. ومع ذلك يخضع هذه المساحة من الحب والبغض النفسيين لضابطة دقيقة، وهي ألا يحب من يبغض الله ومن يحارب الله ورسوله، ولا يبغض أولياء الله والمؤمن بالله ورسوله. فليس للمؤمن خيار في هاتين الحالتين، ولا يجوز له أن يضمر كرهاً لمؤمن أو يضمر حباً لكافر.

ثالثاً: تحكيم الحب في الله

على المؤمن تحكيم «الحب في الله» على كل علاقاته وصلاته، وميوله القلبية تماماً، كما كان عليه أن يحكم حب الله على كل علاقاته، فليس من خطر في الإسلام على المسلم أن يحب الإنسان لنفسه ما يشاء، وما تهوى نفسه، وإن كان من منهج التربية الإسلامية أن يسعى ليكون «حب‌الله» هو مصدر كل حب في حياته، حتى لايحب شيئاً إلّا الله، ولكن لا يجوز أن يكون حبه لشيء أشد من حبه لله. وهذه هي أولى الضابطتين السابقتين في الحب، ولا يجوز له أن يحب من يبغضه الله، أو يبغض من يحبه الله، وهذه هي ثانية الضابطتين، والضابطة الثالثة التي نذكرها: ألّا يجعل من «حبه لنفسه» محوراً حاكماً للحب والبغض بمعزل عن الضوابط الشرعية للحب والبغض، بعكس «الحب في الله» فإنه المحور الحاكم للحب والبغض في حياة الإنسان، فما كان من الحب في الله فهو حاكم على كل علاقات الإنسان، وما كان من الحب للنفس فهو محكوم لضوابط الحب والبغض في الإسلام.

وهذا هو الفرق الثالث بين «حب الله» و«الحب في الله» من جانب، وبين الحب للنفس من جانب آخر. وهذا هو معنى محورية الحب في الله في علاقات المسلم وميوله القلبية كما كان حب الله محوراً للحب والبغض في حياة الإنسان المسلم.

ونفس محورية «الحب في الله» وتحكيمه على علاقات الإنسان وميوله ضمن نقطتين:

١ ـ أن يحكم «الحب في الله» سلباً في نفي ما لا ينسجم مع الحب في الله من حب، وإيجاباً في إثبات ما يتطلبه في الله من حب.

فإن الحب في الله، كما كان الأمر في «حب‌الله» يستتبع حباً وبغضاً... ولن يكون المسلم صادقاً في حبه في الله إلّا إذا حكم حبه في الله، في كل علاقاته وميوله، واستجاب لكل ما يستتبعه «الحب في الله» من حب وبغض، فكما لم يكن له خيار في «الحب في الله» و «البغض في الله»، ليس له خيار فيما يستتبعه الحب في الله من حب وبغض. فإن امتداد «الولاء» في علاقات الإنسان وارتباطه وصلاته وميوله وتعلقاته القلبية لا حدّ له، وإذا استجاب الإنسان للولاء فلا خيار له فيما يستتبعه الولاء من حب وبغض، مهما امتد في حلقات سلسلة الوشائج والعلاقات.

ولعل هذا الحديث الذي رواه الفريقان من المسلمين في حب أهل البيت عليهم السلام لحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لحب الله بهذا التسلسل الولائي ما يلقي الضوء على مسألة تحكيم الحب في الله على صلات المسلم وعلاقاته وميوله القلبية.

عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **أحبوا الله لما يغذوكم من نعمة وأحبوني لحب الله. وأحبوا أهل بيتي لحبي**[٤٧].

وأما في الجانب السلبي فإن الحب في الله كـ «حب الله»، قضية مبدئية في حياة الإنسان يستتبع البغض والكره والحرب أحياناً، وتكلف الإنسان الكثير في هذا الجانب، ومن دون هذه الناحية السلبية لن يكون الإنسان صادقاً في حبه وولائه.

فلن يكون الحب في الله أمراً شاقاً، لو لم يستلزم مثل هذه التبعات في حياة الإنسان وعلاقاته وميوله وصلاته، ولو لم يتطلب من الإنسان أن يدفع ضريبة هذا الحب من علاقاته وصلاته، ومن ذات نفسه وميوله وتعلقاته.

والشواهد على حاكمية الحب في الله في الشريعة كثيرة، نذكر جملة منها.

عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي وفاطمة والحسن والحسين: **أنا حرب لمن حاربتم وسلم ولمن سالمتم**[٤٨].

وعن أبي هريرة قال نظر النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى علي وفاطمة والحسن والحسين، فقال: **أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم**.

وفي حديث الغدير يقول براء بن العازب: **أخذ رسول الله بيد علي، فقال: من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه**[٤٩].

وعن زيد بن أرقم عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: **ألستم تعلمون ـ أو ألستم تشهدون ـ أني أولى بكل مؤمن من نفسه؟ قالوا: بلى. قال: فمن كنت مولاه فإن علياً مولاه، اللهم عاد من عاداه ووال من والاه**[٥٠].

والأحاديث بهذا المضمون كثيرة.

«الحب في الله» إذن محور حاكم في حياة الإنسان يستتبع الحب والبغض، والولاء والعداء.

وقد ورد هذا المضمون في الزيارات المأثورة لأولياء الله وأئمة المسلمين كثيراً. ففي زيارة سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام: فمعكم معكم لا مع عدوكم. فإن محبة الإمام الحسين عليه السلام عندما تكون لله، تتطلب المفاصلة والمقاطعة مع أعدائه، ومن دون هذه المقاطعة والمفاصلة لا تكتسب هذه المحبة قيمتها الحقيقية. وهذه هي النقطة الأولى في «الحب في الله».

٢ ـ والنقطة الثانية في (الحب في الله) أن يحكم المؤمن «الحب في الله» في درجات الحب، وفي الإيثار، وتقديم حب على حب وتفضيل أمر على آخر. فإذا تزاحمت الميول، والعلاقات، والتعلقات القلبية، قدم منها ما كان في الله، وأخّر منها ما كان لنفسه، وآثر منها ما كان لله على ما كان لنفسه، وضمن الضوابط الواردة في الشريعة في تقديم الأهم على المهم.

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **فو الذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده**[٥١].

ورواه مسلم في الصحيح عن أنس بالصورة التالية: لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله ومن الناس أجمعين[٥٢].

وعن طريق ابن ليلى الأنصاري عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لا يؤمن عبد لله حتى أكون أحب إليه من نفسه، وتكون عترتي أحب إليه من عترته، ويكون أهلي أحب إليه من أهله[٥٣].

وبهذا يختلف «الحب في الله» عن «حب النفس» الذي يقع في الدائرة المسموح بها إسلامياً. فإن الثاني يقع دائماً محكوماً للأول. فحب القوم والوطن أمر جائز إسلاماً ولم يمنع عنهما (في الدائرة المسموحة شرعاً) إلّا أن هذا الحب لا يشكل محوراً حاكماً في العلاقات الاجتماعية والتعلقات القلبية، ويكون محكوماً لضوابط «حب الله» و «الحب في الله». فلا يجوز للإنسان أن يمتد مع حبه لقومه ووطنه في كل مستلزمات هذا الحب وتوابعه من دون قيود. ولا يسمح للإنسان أن يحب أعداء الله ورسوله من بني قومه ووطنه... فيجب عليه أن يحب المؤمنين من غير قومه ووطنه، ويبغض ويحارب أعداء الله ورسوله من قومه وعشيرته ووطنه.

سئل الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام عن العصبية. فقال: العصبية التي يؤثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم[٥٤].

وأما حب الأمّة الإسلامية فإنه لما كان من مصاديق «الحب في الله» فإنه يمتد إلى كل مستلزماته ومتطلباته، فيجب على المؤمن أن يحب كل المسلمين من قومه ووطنه، ومن غير قومه ووطنه، ويحارب كل أعداء الله والمعتدين من قومه ووطنه ومن خارج قومه ووطنه. فيكون الحب الأول من الحب المسموح به والمحكوم بضوابط الحب في الله وليس من الولاء. بينما يكون الحب الثاني من الولاء الحاكم على كل علاقاته وتعلقاته القومية والوطنية.

إن جوهر الولاء وقمته في التوحيد، فإذا انتفى التوحيد ينتفي الولاء رأساً. ونحن إذا أدركنا هذه الحقيقة في معنى الولاء نستطيع أن نفهم معناه، ومن دونها يبقى فهمنا لمسألة الولاء فهماً عاماً ساذجاً، ينسجم الولاء فيه مع الولاء لكل أحد، ولكل شيء، حتى مع الولاء لأعداء الله. فيجمع حب الله والولاء له ولأنبيائه عليهم السلام مع حب فرعون والولاء له، فيجتمع حب الإسلام والولاء له مع حب الحضارات المجوسية والفرعونية والبابلية والولاء لها ـ كما في الاتجاهات القومية المعاصرة ـ.

وعندما يهبط الولاء إلى هذا المستوى يفقد الولاء كل محتواه وقيمته وأثره.

فالحب في الله ـ إذن ـ يشكل في حياة الإنسان المسلم محوراً للولاء في السلب والإيجاب، والحب والبغض، والقرب والبعد، ويكون حاكماً على كل علاقات الإنسان وتعلقاته وميوله وتوجهاته. وكل حب آخر لا ينافي الحب لله فهو مسموح به وجائز، على أن يبقى محكوماً للحب لله. وحتى عندما يحب المسلم طائفتين مسلمتين في الله ويتخاصمان في أمر، فلا يمكن

أن يجمع بينهما في الحب، بل يضطر لاتخاذ موقف منهما. فإن ضوابط الحب في الله هي التي تتحكم في اتخاذ مثل هذا الموقف، ولا يترك الأمر في مثل هذه المواقف لعواطف الإنسان تجاهها، ودرجة حبه وتعلقه بكل واحد منهما، فيؤثر منهما من كان أقرب إلى نفسه...، ويقف من الآخر موقفاً يميل إلى السلب... أقول: ليس للمسلم في مثل هذه المواقف، وهو يحب الطائفتين في الله، أن يرسل عواطفه حيث يشاء، وكما يرغب، وتميل إليه نفسه، وإنما يجب عليه أن يخضع عواطفه تجاهها لضوابط الحب في الله بدقة، فيحاول أن يصلح بينهما ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وإن بغت احداهما على الآخرى وقف مع الفئة المعتدى عليها ضد الفئة الباغية المعتدية، بحزم وقوة ومن دون أن يميل مع ميوله وعلاقاته النفسية ويحسب حساباً لقرب إحداهما منه أو بعدها، ومن دون أن يرقّ أو يلين للفئة الباغية على حساب الحقّ، وإذا لم ترتدع الفئة الظالمة عن بغيها وغيِّها أعلن عليها الحرب وقاتلها إلى جنب الفئة المعتدى عليها: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي، حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾[٥٥].

فالحب في الله إذن محور حاكم في حياة الإنسان المسلم، يرسم له خريطة واضحة لعلاقاته في المجتمع والأسرة ولقربه وبعده، وحبه وبغضه. ومن خصائص هذا المحور أنه يرفض دائماً أي محور إلى جنبه، مهما يكن ذلك المحور.

إخلاص الحب لله

وهذه مقولة فوق مقولة توحيد الحب. فإن توحيد الحب لا ينفي أي حب آخر غير حب الله، ولكنه يحكم حب الله تعالى، ويغلبه على أي حب آخر، فيكون حب الله هو الحب الغالب الحاكم ﴿والذين آمنوا أشد حباً لله﴾[٥٦] وهو من شروط الإيمان وفرع من فروع التوحيد.

أجل، إخلاص الحب لله ينفي أي حب آخر غير حب الله، إلّا أن يكون في امتداد حب الله (الحب لله، والبغض لله). وهو ليس من شؤون الإيمان والتوحيد ولكنه من شؤون الصديقين ومقاماتهم فإن الله تعالى يمكّن أولياءه وعباده الصالحين من تفريغ قلوبهم من كل حب وودّ غير حبه وودّه.

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام: القلب حرم الله، فلا تسكن حرم الله غير الله[٥٧].

وهذه صفة خاصّة للقلب، فإن الجوارح تسعى وتتحرك في الحياة باتجاهات وشؤون شتى، فيما أباحه الله تعالى وأجازه. أما القلب فهو حرم الله تعالى، ولا ينبغي أن يحلّ فيه حب وتعلق بغير الله.

والتعبير عن القلب في النص بـ «الحرم» دقيق ومعبر، فإن الحرم منطقة آمنة ومغلقة على كل غريب، لا ينال أهلها سوء أو خوف، ولا يدخلها غريب، وكذلك القلب حرم الله الآمن، لا يدخله حب آخر غير حب الله، ولا يمس فيه حب الله سوء أو خوف. ولذلك فإن الصديقين والأولياء من عباد الله يخلصون الحب لله، ولا يجمعون بين

حب الله وحب آخر، مهما كان، إلّا أن يكون في امتداد حب الله.

وفي المناجاة التالية تلمس لوعة الحب وصدق الإخلاص في الحب في كلمات الإمام زين العابدين عليه السلام:

سيدي إليك رغبتي، وإليك رهبتي، وإليك تأميلي، وقد ساقني إليك أملي، وعليك يا واحدي عكفت همتي، وفيما عندك انبسطت رغبتي، ولك خالص رجائي وخوفي، وبك أنست محبتي، وإليك ألقيت بيدي... ، وبذكرك عاش قلبي..

فالإمام عليه السلام في هذه المناجاة يربط أمله ورغبته ورهبته كلها بالله، ويعكف بهمته كلها عليه تعالى، ويجعل له خالص رجائه وخوفه.

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أحبوا الله من كل قلوبكم[٥٨].

وفي الدعاء عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام: اللهم إني أسألك أن تملأ قلبي حباً لك، وخشية منك، وتصديقاً لك وإيماناً بك، وفرقاً منك، وشوقاً إليك[٥٩].

وإذا كان حب الله والشوق إليه ملء قلب العبد، فلا يبقى في قلبه محل شاغر لحب آخر غير حب الله، إلّا أن يكون في امتداد حبه، وهو في الحقيقة من حب الله ومن الشوق إليه.

وفي الدعاء عن الإمام الصادق عليه السلام عند حضور شهر رمضان: «اللهم صل على محمد وآل محمد واشغل قلبي بعظيم شأنك، وأرسل محبتك إليه حتى ألقاك وأوداجي تشخب دماً»[٦٠].

وهو بمعنى إخلاص الحب لله، حيث يكون حب الله هو الشغل الشاغل للقلب، وهمه الذي لا يفارقه.

غيرة الله على عبده

إن الله تعالى يحب عبده. ومن خصائص الحب الغيرة، فهو على قلب عبده غيور، يحب أن يخلص له عبده حبه، ولا يحب غيره، ولا يسمح بحب آخر أن يدخل قلبه.

روي أن موسى عليه السلام ناجى ربه بالوادي المقدس، فقال: يا رب إني أخلصت لك المحبة مني، وغسلت قلبي عمن سواك، وكان شديد الحب لأهله. فقال الله تبارك وتعالى: انزع حب أهلك من قلبك، إن كانت محبتك لي خالصة[٦١].

ومن غيرة الله تعالى على عبده أن يزيل حب الأغيار من قلب عبده، وإذا وجد أن عبده قد تعلق بغيره سلبه عنه، حتى يخلص قلب عبده لحبه وقد ورد في الدعاء عن الإمام الحسين عليه السلام: أنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك... ماذا وجد من فقدك؟ وما الذي فقد من وجدك، لقد خاب من رضي دونك بدلاً.

الحب لله وفي الله

يبقى علينا أن نجيب عن التساؤل التالي، فقد نفسر إخلاص الحب لله بهذا المعنى بأنه على خلاف طبيعة الإنسان وفطرته، فإن الله تعالى فطر الإنسان على حب أشياء كثيرة، وكره أشياء كثيرة، وإخلاص الحب لله بهذا المعنى ينافي هذه الفطرة التي فطر الله تعالى خلقه عليها.

والجواب: إن إخلاص الحب لله ليس بمعنى التنكر للفطرة، بل بمعنى توجيه الحب والكره من خلال ما يحب الله تعالى وما يكرهه.

فالله تعالى لا يريد من عبده وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أن ينتزع حب أهله من قلبه وإنّما يريد أن يكون حبه لأهله من خلال حبه، وأن يكون حبه هو المصدر الوحيد لكل حب في قلبه. وبتعبير آخر إن الذي يطلبه الله تعالى من عبده وكليمه موسى بن عمران عليه السلام هو ربط كل حب بقناة حبه تعالى، فيكون عندئذ حبه لأهله تكريساً لحبه له تعالى، وهو معنى دقيق وأسلوب رائع في التربية لا يناله إلّا من اختصه الله تعالى بحبه واصطفاه.

فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو من أكثر الناس خلوصاً، وصفاءً، ونقاءً، وكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: أحب من دنياكم ثلاث: الطيب، النساء، وقرة عيني الصلاة.

وليس من شك أن هذا الحب يقع في امتداد حب الله، وإن أحب هذه الثلاثة إلى قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الصلاة، فهي قرة عينه، وليس من شك أن حب رسول الله لها يقع في امتداد حبه لله.

فليس في إخلاص الحب لله تخريب للفطرة وتشويه للطبيعة التي خلقها الله تعالى، بل هو إعادة لتنظيم خارطة الحب والبغض في حياة الإنسان بهذا الملاك الجديد الذي يطرحه الإسلام. فيبقى حب الإنسان الطبيعي في مواضعه، ولكن ضمن تنظيم جديد يكرس حب العبد لله تعالى بدل أن يضعفه ويشوش عليه.

ولهذا السبب فقد ورد تأكيد بليغ في النصوص الإسلامية في قيمة الحب لله وفي الله.

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام المحبة لله أقرب نسب[٦٢].

وعنه عليه السلام أيضاً: المحبة في الله آكد من وشيج الرحم[٦٣].

والتعبير دقيق ويعتمد على أصل فكري هام، فإن للناس في حياتهم أنساباً ووشائج من العلاقات. ومن أوثق هذه الوشائج وشيجة الرحم، والعلاقة بالله تعالى آكد من وشيجة الرحم، وإذا ربط الإنسان حبه وتعلقه بهذه الوشيجة، وأحب من خلالها، وأبغض من خلالها كان أكمل النسب وآكد الوشائج.

وإنما يكون آكد الوشائج لأن الحب إذا كان لغير الله قد يتغير وقد يختل، وقد يتأثر بالمؤثرات التي تغير وجه الناس بعضهم لبعض. أما إذا كان حب الإنسان لأخيه لله فإنه آكد وأقوى وأكثر ثباتاً تجاه المؤثرات والعوامل المضادة المختلفة.

إن إخلاص الحب لله لا ينفي التعلقات الطبيعية في نفس الإنسان، بل يؤكدها أيضاً ويرسخها، بعد أن ينظمها من خلال القناة الكبرى التي تنظم كل حب الصديقين وأولياء الله. فيكون أفضل الناس عند الله أكثرهم حباً لأخيه المؤمن في الله.

عن الإمام الصادق عليه السلام: ما التقى مؤمنان قط إلّا كان أفضلهما أشدهما حباً لأخيه[٦٤].

وروي عن الإمام أبي عبدالله الصادق عليه السلام أيضاً: إن المتحابين في الله يوم القيامة على منابر من نور، قد أضاء نور أجسادهم ونور منابرهم كل شيء، حتى يُعرفوا به، فيقال:

هؤلاء المتحابون في الله[٦٥].

المصدر الأول للحب

من أين نستقي حب الله؟ هذا سؤال هام في بحثنا. فمادمنا قد عرفنا قيمة حب الله، فلابد أن نعرف من أين نأخذ هذا الحب، وما هو مصدره؟

وإجمال الجواب: أن الله تعالى هو مصدر الحب ومبدؤه وغايته. ولابد لهذا الإجمال من تفصيل، وإليك هذا التفصيل:

١ ـ يحب الله عباده

إن الله تعالى يحب عباده، ويرزقهم، ويستر عليهم، ويهبهم من المواهب والنعم ما لا يحصيه أحد، ويعفو عنهم، ويتوب عليهم، ويسددهم، ويرزقهم التوفيق ويهديهم صراطه المستقيم، ويتولاهم برعايته وفضله ويدفع عنهم السوء والشر. وهذه جميعاً أمارات الحب.

٢ ـ ويمنحهم حبه وودّه

ومن حب الله تعالى لعباده أنه يهبهم ويرزقهم حبه، وأمر هذا الحب غريب، فإن الله تعالى هو واهب الحب، وهو الذي يتلقى الحب من عباده، ويهبهم الجذبة بعد الجذبة، ثم يجذبهم إليه بتلك الجذبة. ونحن نجد في نصوص الأحاديث والأدعية إشارات متكررة إلى هذا المعنى، ففي المناجاة الثانية عشرة للإمام زين العابدين ـ وقد شرحنا هذا النص من قبل ـ: «إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم...

وفي التكملة التي يذكرها السيد ابن طاووس لدعاء الإمام الحسين عليه السلام في عرفة:

كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟! متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك؟! ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟! عميت عين لا تراك عليها رقيباً. وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً... فاهدني بنورك إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك... وصنّي بسرّك المصون، واسلك بي مسلك أهل الجذب. إلهي اغنني بتدبيرك لي عن تدبيري، وباختيارك عن اختياري... أنت الذي أشرقت الأنوار في قلوب أوليائك حتى عرفوك ووحدوك، وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك، ولم يلجأوا إلى غيرك، وأنت المؤنس لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حيث استبانت لهم المعالم. ماذا وجد من فقدك؟ وما الذي فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضي دونك بدلاً، ولقد خسر من بغي عنك متحولاً. كيف يرجى سواك وأنت ما قطعت الإحسان؟! وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بدلت عادة الإمتنان؟!.

يا من أذاق أحباءه حلاوة المؤانسة، فقاموا بين يديه متملقين، ويا من ألبس أولياءه ملابس هيبته، فقاموا بين يديه مستغفرين... إلهي اطلبني برحمتك، حتى أصل إليك، واجذبني بمنّك حتى أُقبل عليك[٦٦].

٣ ـ ويتحبب إليهم

والله تعالى يتحبب إلى عباده، فيغدق عليهم النعم ليحبوه، وإن النعم في القلوب الواعية والمدركة تحبب الله تعالى إلى الذين ينعم عليهم.

في دعاء الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام في الأسحار: **تتحبب إلينا بالنعم ونعارضك بالذنوب، خيرك إلينا نازل، وشرنا إليك صاعد، ولم يزل، ولا يزال ملك كريم يأتيك عنا في كل يوم بعمل قبيح، فلا يمنعك ما يأتي منا من ذلك أن تحوطنا برحمتك، وتتفضل علينا بآلائك، فسبحانك ما أحلمك وأعظمك وأكرمك مبدئاً ومعيداً**[٦٧].

والمقارنة بين ما هو النازل من الله إلى العبد، من نعمة، وفضل وإحسان، وجميل، وعفو، وستر، وبين ما هو الصاعد من العبد إلى الله من قبيح وشر، يشعر العبد بالخجل من مولاه، فهو يقابل هذا الحب والتحبب من جانب الله تعالى بالإعراض والتبغض إليه.

وما أكثر بؤس الإنسان وشقاءه إذا كان يقابل حب الله تعالى له وتحببه إليه بالإعراض والتباغض. تأملوا في هذه الكلمات من دعاء الافتتاح للإمام الحجة عليه السلام:

إنك تدعوني فأولّي عنك، وتتحبب إلي فأتبغض إليك، وتتودد إلي فلا أقبل منك، كأن لي التطول عليك، فلم يمنعك ذلك من الرحمة بي والإحسان إلي والتفضل علي[٦٨].

وواضح لمن يقرأ كتاب الله أن القرآن الكريم يحرص على توظيف النعمة في توجيه الإنسان إلى حب الله وحمده وشكره.

تأملوا في هذه الآية الكريمة من سورة الزخرف، وهي مثل واحد على ما نقول: ﴿والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾[٦٩].

إذن الغاية من الفلك والأنعام والدواب ثلاثة، وليست واحدة:

١ ـ لتستووا على ظهوره، وهي الاستفادة من النعمة.

٢ ـ ثم ﴿تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه﴾ وهي وعي النعمة.

٣ ـ ثم تقولوا ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾ وهي الشكر والحمد والتسبيح.

والذين يتلقون نعم الله تعالى من دون وعي وحمد، هم كالبهائم، يستفيدون في الحقيقة من النعمة استفادة ناقصة؛ فإن النعمة تزوّد الجسم والروح والعقل والقلب.

والذين يستفيدون من النعمة فائدة ناقصة يحرمون عقولهم وقلوبهم وأرواحهم من النعم الإلهية.

كما تحفل النصوص الإسلامية بتوجيه الأنبياء والدعاة إلى الله بدعوة الناس إلى الله، وتحبيب الله إليهم من خلال النعمة.

في الحديث القدسي: إن الله تعالى أوحي إلى موسى عليه السلام: «حببني إلى خلقي» قال موسى: يا رب تعلم أنه ليس أحد أحب إلي منك، فكيف لي بقلوب العباد؟ فأوحى الله إليه: «فذكرهم

نعمتي وآلائي فإنهم لا يذكرون مني إلّا خيراً».

وقال الله عز وجل لداود: «أحبني وحببني إلى خلقي». قال: يا رب نعم أنا أحبك، فكيف أحببك إلى خلقك؟ قال: أذكر أيادي عندهم، فإنك إذا ذكرت ذلك لهم أحبوني»[٧٠].

٤ ـ والله يغار على عبده

ومن حب الله تعالى لعبده أنه يغار على عبده، ويحب أن يخلو له وجه عبده ويفرغ له قلبه وقد تحدثنا عن هذه النقطة، فلا نعيد.

٥ ـ ويدعوهم إلى التوبة

ومن حبه تعالى لعباده أنهم إذا عصوه، وأعرضوا عنه لم يعرض عنهم، بل يمد إليهم حبل المودّة، ويدعوهم إلى العودة، ويفتح عليهم أبواب التوبة:

﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾[٧١].

٦ ـ ويأخذهم بالبأساء والضراء

وإن لم يتوبوا، ولم يرجعوا إليه، واستمروا في إعراضهم وصدودهم، لم يعرض الله عنهم، ولم يقطع عليهم طرق العودة، وإنما يبتليهم ويأخذهم بالبأساء والضراء، لعلهم يضّرعون ويعودون: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلّا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضّرعون﴾[٧٢].

وقد ورد في المناجاة الثامنة للإمام علي بن الحسين عليه‌السلام:

يا من هو على المقبلين عليه مقبل، وبالعطف عليهم عائد مفضل، وبالغافلين عن ذكره رحيم ودود عطوف.

فهو سبحانه عطوف ودود، حتى على الغافلين والمعرضين عنه يحب عباده ويتحبب إليهم، ويمنحهم الحب، ويفتح إليهم طريق العودة إلى الحب إذا أعرضوا عنه.

وعليه، فإن الله تعالى هو مصدر الحب وغايته. ومن أراد الحب الإلهي فعليه أن يطلبه من الله.

وفي نصوص الأدعية نلتقي بكثرة سؤال الحب من الله تعالى، وقد عرضنا بعض هذه النماذج خلال هذا الحديث.

وفي دعاء الإمام الحسين عليه‌السلام:

اللهم إني أسألك أن تملأ قلبي حباً لك وخشية منك، وتصديقاً لك، وإيماناً بك، وفرقاً منك وشوقاً إليك[٧٣].

وفي الدعاء عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم:

اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك. اللهم اجعل حبك أحب إلى نفسي وأهلي[٧٤].

وفي المناجاة السابعة من المناجاة الخمس عشرة:

اللهم احملنا في سفن نجاتك، ومتّعنا بلذيذ مناجاتك، وأوردنا حياض حبك، وأذقنا حلاوة ودّك، واجعل جهادنا فيك، وهمّنا في طاعتك، وأخلص نياتنا في معاملتك، فإنا بك، ولك، ولا وسيلة لنا إليك إلّا أنت[٧٥].

كيف نحب الله

ذكرنا أن الله تعالى يتحبب إلى عباده بالنعم،

وهذه حقيقة ثابتة لا حاجة للحديث عنها، والذي يهمنا هنا هو أن نقول أن وعي النعمة هو العامل الأساسي والرئيسي في حب الله. وإذا أنعم الله على عبد بنعمة فتلقاها عن وعي، كان لهذا الوعي أثران مباشران في علاقته بالله تعالى.

أحدهما الشكر، والثاني الحب، وكلاهما يرفعان الإنسان إلى الله، وطريقان يسلكهما الإنسان إلى الله.

والعلاقة بين الشكر والنعمة علاقة تبادلية جدلية، كلما أنعم الله على عبد استدعته النعمة إلى الشكر، وكلما شكر العبد ربه زاده الله تعالى من نعمه: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾[٧٦]. وزيادة النعم تستدعي مزيد الشكر، وهكذا يتم الصعود إلى الله تعالى.

وأما إذا تلقى الإنسان النعمة من غير وعي، فإنها تورثه البطر والرياء والغرور والطغيان: ﴿كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى﴾[٧٧].

والنعمة تمنح الإنسان تارة حب الله وشكره، وتثير في نفسه تارة أخرى الغرور والبطر والرياء والطغيان.

والفرق بين هذا وذاك: الوعي، ولذلك يحرص القرآن على التذكير بنعم الله تعالى، وهذا التذكير يشغل مساحة واسعة من القرآن. فنجد أن القرآن يحاول أن يفتح عقل الإنسان وقلبه على طائفة واسعة من نعم الله التي يغفل عنها الإنسان عادة. فإن الإنسان يألف هذه النعم في حياته اليومية كثيراً.

ومن طبيعة هذه الغفلة أن يتبلد الذهن، فلا يحس الإنسان بقيمة هذه النعم وجمالها، نحو نعمة الزوجية، وتكور الليل والنهار، والمراكب التي يستخدمها الإنسان في البر والبحر، وما جعل الله تعالى للإنسان فيهما من نعمة ورزق.. وهي عملية توعية وتذكير واسعة وهادفة بنعم الله تعالى، يقول تعالى: ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾[٧٨]. ويقول تعالى: ﴿وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾[٧٩]. وقد روت عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تفسير هذه الآية الكريمة: «من لم يعلم فضل نعم الله إلّا في مطعمه ومشربه فقد قصر علمه ودنا عذابه»[٨٠].

والتذكير بالنعمة توعية بها. وإذا وعى الإنسان النعمة انقلبت في حياته حباً وشكراً، وإذا تجردت النعمة عن الوعي انقلبت غروراً وطغياناً وبطراً ورياء.

وإلى هذا المعنى الدقيق في قيمة «الحمد» وتوعية الله لعباده بنعمه يشير الإمام علي بن الحسين عليه السلام في الدعاء الأول من أدعية الصحيفة، يقول عليه السلام: والحمد لله الذي لو حبس عن عباده معرفة حمده على ما أبلاهم من مننه المتتابعة وأسبغ عليهم من نعمه المتظاهرة لتصرفوا في مننه فلم يحمدوه وتوسعوا في رزقه فلم يشكروه، ولو كانوا كذلك لخرجوا من حدود الإنسانية إلى حد البهيمية، فكانوا كما وصف في محكم كتابه ﴿إن هم إلّا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾[٨١].

وفي النصوص الإسلامية توجيه متكرر لتوظيف نعم الله في اتجاه حب الله، وتوجيه الناس إلى حبه تعالى بسبب نعمه وآلائه ـ وقد

وردت أمثلتها آنفاً ـ.

ونجد في الأدعية الواردة عن أهل البيت عليهم السلام اهتماماً بالغاً في التركيز على إحصاء نعم الله تعالى وآلائه أولاً، وفي تأكيد الحمد والشكر لله تعالى ثانياً.

وهاتان عمليتان هادفتان في منهاج التربية الإسلامية تؤديان إلى:

١ ـ توعية الإنسان وتذكيره بالنعمة.

٢ ـ توجيهه إلى حمد الله تعالى وشكره وحبه.

وفيما يلي نماذج من التذكير والتوعية بالنعم في نصوص أدعية أهل البيت عليهم السلام أولاً ثم في توجيه الإنسان من خلال هذه التوعية وهذا التذكير إلى شكر الله تعالى ثانياً.

١ـ نموذج من التذكير والتوعية بالنعم

في دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة:

اللهم إني أرغب إليك، وأشهد بالربوبية لك، مقرّاً بأنك ربي، وإليك مردّي، ابتدأتني بنعمتك قبل أن أكون شيئاً مذكوراً، خلقتني من التراب ثم أسكنتني الأصلاب آمناً لريب المنون واختلاف الدهور والسنين فلم أزل ظاعناً من صلب إلى رحم في تقادم من الأيام الماضية والقرون الخالية لم تخرجني لرأفتك بي ولطفك لي وإحسانك إليّ في دولة أيمة الكفر الذين نقضوا عهدك وكذبوا رسلك لكنك أخرجتني للذي سبق لي من الهدى الذي له يسّرتني وفيه أنشأتني ومن قبل ذلك رؤفت بي بجميل صنعك وسوابغ نعمك فابتدعت خلقي من منيّ يمنى وأسكنتني في ظلمات ثلاث بين لحم ودم وجلد لم تشهدني خلقي ولم تجعل إليّ شيئاً من أمري. ثم أخرجتني للذي سبق لي من الهدى إلى الدنيا تاماً سوياً وحفظتني في المهد طفلاً صبياً ورزقتني من الغذاء لبناً مرياً وعطفت عليّ قلوب الحواضن وكفلتني الأمهات الرواحم وكلأتني من طوارق الجان وسلمتني من الزيادة والنقصان فتعاليت يارحيم يارحمن.

٢ـ نموذج من التوجيه إلى الحمد والشكر

في دعاء الإمام علي بن الحسين عليه السلام وهو الدعاء الأول من الصحيفة السجادية:

والحمد لله على ما عرّفنا من نفسه وألهمنا من شكره وفتح لنا أبواب العلم بربوبيته ودلّنا عليه من الإخلاص له في توحيده وجنّبنا من الإلحاد والشك في أمره.. حمداً نعمّر به فيمن حمده من خلقه ونسبق به من سبق إلى رضاه وعفوه. حمداً يضيء لنا به ظلمات البرزخ ويسهّل علينا به سبيل المبعث ويشرّف به منازلنا عند مواقف الأشهاد يوم تجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون...

حمداً يرتفع منا إلى أعلى عليين في كتاب مرقوم يشهده المقربون. حمداً تقرّ به عيوننا إذا برقت الأبصار وتبيّض به وجوهنا إذا اسودّت الأبشار. حمداً نُعتق به من أليم نار الله إلى كريم جوار الله...

نتائج وآثار حب الله في حياة الإنسان

لحب الله آثار عظيمة في حياة الإنسان فمنها:

١ ـ الاتباع والطاعة، فإن الإنسان إذا أحب الله تعالى أطاع الله ورسوله. وطاعة الله ورسوله تستتبع حب الله ومغفرته، يقول تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله، فاتبعوني يحببكم الله، ويغفر لكم ذنوبكم، والله غفور رحيم﴾[٨٢].

٢ ـ إن حب الله تعالى يطهر القلب مما يرين عليه من الأدران، ومن التعلق بالدنيا، فإن حب الله هو العامل الأقوى والأكثر نفوذاً في قلب الإنسان. والعامل الأقوى يصفي العوامل المعاكسة والمضادة.

وقد وري عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام: حب الله نار لا يمر على شيء إلّا احترق، ونور لا يطلع على شيء إلّا أضاء[٨٣].

فهو نار ونور، يطهر القلب، ويضيئه، ويمنحه النور والبصيرة. وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: حب الله إذا أضاء على سر عبد أخلاه عن كل شاغل، وكل ذكر سوى الله عنده ظلمة والمحب أخلص الناس سراً لله وأصدقهم قولاً، وأوفاهم عهداً، وأزكاهم عملاً، وأصفاهم ذكراً، وأعبدهم نفساً، تتباهى الملائكة عند مناجاته، وتفخر برؤيته[٨٤].

٣ ـ ومن نتائج حب الله الذكر، فإن قلب المحب ذاكر. والقلب الساهي واللاهي لا يدخله الحب، ولا يغفل المحب ولا يسهو عمن يحب. عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: علامة حب الله تعالى ذكر الله، وعلامة بغض الله تعالى بغض ذكر الله عز وجل[٨٥].

فإن الإنسان إذا أحب شيئاً ذكره، وإذا أكثر من حب شيء أكثر من ذكره، وإذا لم يحب شيئاً غفل عنه أو تغافل عنه، ومن الذكر قيام الليل، وإطالة السجود، والقيام بين يدي الله، ومداومة العبادة والذكر.

وقد روي عن الإمام علي عليه السلام القلب المحب لله يحب كثيراً النصَب لله، والقلب اللاهي في الله يحب الراحة[٨٦].

وروي أنه كان فيما أوحى الله تعالى إلى موسى بن عمران عليه السلام: كذب من زعم أنه يحبني فإذا جنه الليل نام عني، أليس كل محب يحب خلوة حبيبه؟ ها أنا ذا يا ابن عمران مطلع على أحبائي، إذا جنهم الليل حولت أبصارهم من قلوبهم ومثلت عقوبتي بين أعينهم...[٨٧].

٤ ـ ومن نتائج حب الله الرضا بأمر الله، والرضا بأمر الله مرتبة فوق مرتبة التسليم، فإن الإنسان قد يسلم لأمر وهو غير راض عنه، والرضا بأمر الله وقضائه وقدره من أسمى مراتب أولياء الله.

ففي الدعاء الذي علمه أمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد: اللهم إني أسألك سؤال خاضع متذلل، خاشع، أن تسامحني، وترحمني، وتجعلني بقسمك راضياً قانعاً، وفي جميع الأحوال متواضعاً[٨٨].

وفي الدعاء في زيارة أمين الله: اللهم فاجعل نفسي مطمئنة بقدرتك، راضية بقضائك، مولعة بذكرك ودعائك، محبة لصفوة أوليائك، محبوبة في أرضك وسمائك[٨٩].

والرضا بأمر الله من خصائص ونتائج حب الله، فإن الإنسان إذا أحب الله رضي بأمره وقضائه وقدره.

وفيما أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام:

يـا داود مـن أحب حـبيباً صـدق قـوله، ومـن رضي بحبيب رضي فعله، ومن وثـق بـحبيب اعتمد عليه، ومـن اشـتاق إلى حـبيب جدّ فـي السير إليه[٩٠].

٥ ـ ومن نتائج حب العـبد لله حب الله العـبد، وهو نتيجة حتمية. والآية الكريمة تشير إلى هذا المـعنى ﴿قـل إن كـنتم تـحبون الله فـاتبعوني يـحببكم الله ويـغفر لكـم ذنـوبكم والله غـفور رحيم﴾[٩١].

٦ ـ ومـن نـتائج حب الله: الحب فـي الله والبغض فـي الله، وهو أثر طبيعي لحب الله، فإن الإنسان إذا أحب شيئاً، يحب فيه ويبغض فيه.

وفي النص الآتي نلتقي جملة من آثار ونتائج حب الله في حياة الإنسان.

عن الإمام جعفربن محمد الصادق عليه‌السلام: «إن حب الله إذا ورثه القلب واستضاء به أسرع إليه اللطف، فـإذا نـزل اللـطف صـار مـن أهـل الفوائد... فإذا بلغ هـذه المـنزلة جـعل شـهوته ومحبته في خالقه، فإذا فعل ذلك نزل المـنزلة الكبرى، فعاين ربـه فـي قـلبه، وورث الحكمة بغير ما ورثه الحكماء وورث العلم بـغير مـا ورثه العلماء، وورث الصـدق بـغير مـا ورثـه الصـديقون. إن الحكـماء ورثـوا الحكـمة بالصمت، وإن العلماء ورثوا العلم بالطلب، وإن الصديقين ورثـوا الصـدق بـالخشوع وطـول العبادة... فمن أخذ هذه المسيرة إما يسفل وإما أن يرتفع، وأكثرهم الذي يسفل ولا يرتفع إذا لم يرع حقّ الله، ولم يعمل بما أمر به. فهذه صـفة من لم يعرف الله حق مـعرفته، ولم يـحبه حـق مـحبته، فـلا يـغرنك صـلاتهم وصـيامهم ورواياتهم وعلومهم، فإنهم حمر مستنفرة[٩٢].

العلاقة التبادلية بين حب الله ونتائجه

ولابد هنا من أن نشير إلى حقيقة هامة في هذا البحث، وهي أن العلاقة بين حب الله، وجملة من النـتائج المـترتبة عـلى حب الله عـلاقة تـبادلية وجدلية، كل منهما يؤدي إلى الآخر.

* فإن الحب يؤدي إلى الذكر.

عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: علامة الحب لله تعالى حب ذكر الله[٩٣].

* والذكر يؤدي إلى الحب.

عن الإمام الصادق عليه‌السلام قال: قال رسـول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم «من أكثر ذكر الله أحبه»[٩٤].

* حب الله يـؤدي إلى تـفريغ القـلب مـن الشواغل والتعلق بالدنيا.

عـن الإمـام الصـادق عليه‌السلام: حب الله إذا أضاء على سر عبد أخلاه عن كل شاغل[٩٥].

* وتفريغ القلب من الشواغـل ومـن التـعلق بالدنيا يؤدي إلى حب الله.

عـن الإمـام الصـادق عليه‌السلام: إذا تـخلى المؤمن من الدنيا سما ووجد حـلاوة حب الله، وكان عند أهل الدنـيا كـأنه قـد خـولط، وإنـما خـالط القـوم حـلاوة حب الله فـلم يشـتغلوا بغيره[٩٦].

والحب في الله والبغض في الله من نتائج حب الله، ولكنه في الوقت نـفسه يـؤدي إلى حب الله، فإن من أحب في الله يتأكد حبه لله تـعالى، ومـن أحب الله أحبه الله، ومن أحبه الله أحب الله.

ولهذه العلاقة التبادلية نظائر كثيرة في الثقافة الإسلامية، وهي تسير العبد في خط تصاعدي إلى الله، فإن الذكر يكرس الحب، والحب يكرس الذكر مثلاً. وهكذا يتضاعف الحب والذكر في هذه العلاقة التبادلية باتجاه القرب إلى الله.

تبادل الحب بين الله تعالى وعبده

تحدثنا عن العلاقة المتبادلة بين حب الله لعباده وحب العبد لله، وذكرنا أن هذه العلاقة متبادلة، وكل منهما يؤدي إلى الآخر، وبالتالي تكون منطلقاً لحركة تصاعدية إلى الله في حياة الإنسان.

والقرآن يذكر هذا الحب المتبادل بين الله وعباده في سورة المائدة، يقول تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾[٩٧].

والعلاقة بين هذا الحب وذاك (حب الله لعبده، وحب العبد لربه) علاقة تبادلية. وإذا أراد الإنسان أن يعرف حب الله تعالى له، فلينظر إلى نفسه فهي مرآة ومقياس دقيق يستطيع الإنسان أن يعرف منها منزلته عند الله تعالى، وحب الله له. روي عن الإمام الصادق عليه‌السلام: من أحب أن يعلم ما له عند الله، فليعلم ما لله عنده[٩٨].

وروي عن الإمام الصادق عليه‌السلام: من أراد أن يعرف كيف منزلته عند الله فليعرف كيف منزلة الله عنده، فإن الله ينزل العبد ما ينزل العبد الله من نفسه[٩٩].

وعن الإمام علي عليه‌السلام: من أراد منكم أن يعرف كيف منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله منه عند الذنوب، كذلك منزلته عند الله تبارك وتعالى[١٠٠].

وعن علي عليه‌السلام: من أحب أن يعلم كيف منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن كل من خِيرَ له أمران: أمر الدنيا وأمر الآخرة، فاختار أمر الآخرة على الدنيا فذلك الذي يحب الله، ومن اختار أمر الدنيا فذلك الذي لا منزلة لله عنده[١٠١].

وفي النص التالي نلتقي صورة معبّرة ودقيقة للعلاقة المتبادلة بين الله تعالى وعبده، وما أكرم الله تعالى عباده به من قربه وحبه وجواره وفضله إذا أقبلوا عليه، وأحبوه وطلبوه.

وفي هذا النص نجد صورة رائعة من كرم الربوبية وسعة رحمته، وفضله وعطائه الجم، تبارك وتعالى. وإليكم النص:

كان فيما أوحى الله تعالى إلى داود: يا داود أبلغ أهل الأرض أني حبيب من أحبني، وجليس من جالسني ومؤنس من أنس بذكري، وصاحب لمن صاحبني. وما أحبني أحد أعلم ذلك يقيناً من قلبه، إلّا قبلته لنفسي، وأحببته حباً لا يتقدمه أحد من خلقي. من طلبني بالحق وجدني، ومن طلب غيري لم يجدني، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها، وهلموا إلى كرامتي، ومصاحبتي، ومجالستي، ومؤانستي، وآنسوني أؤنسكم وأسارع إلى محبتكم[١٠٢].

إذا أحب الله عبداً

وإذا أحب الله تعالى عبداً فتح عليه خزائن رحمته، ورزقه من فضله ورحمته، في الدنيا والآخرة، من غير حساب، وفتح قلبه على معرفته، ورزقه الإيمان، والبصيرة، واليقين، والحب، وأولهه إليه، وشوّقه إلى جنابه، وآنسه بحضرته، وأشرب قلبه حبه، وأدناه وقرّبه، وأعطاه رضاه، ورضوان الله أكبر.

عن الإمام الصادق عليه‌السلام:

إذا أحب الله عبداً ألهمه الطاعة، وألزمه القناعة، وفقّهه في الدين، وقواه باليقين، فاكتفى بالكفاف، واكتسى بالعفاف. وإذا أبغض الله عبداً حبب إليه المال، وبسط له، وألهمه دنياه، ووكله إلى هواه، فركب العناد، وبسط الفساد، وظلم العباد[١٠٣].

وعن علي عليه‌السلام: إذا أحب الله عبداً ألهمه حسن العبادة[١٠٤].

وعنه عليه‌السلام: إذا أحب الله عبداً حبب إليه الأمانة.

وعنه عليه‌السلام أيضاً: إذا أحب الله عبداً زيّنه بالسكينة والحلم.

وعنه عليه‌السلام: إذا أحب الله عبداً ألهمه الصدق.

وعنه عليه‌السلام: إذا أحب الله عبداً ألهمه رشده ووفّقه لطاعته.

وعنه عليه‌السلام: إذا أحب الله عبداً بغّض إليه المال، وقصر عنه الآمال.

وعنه عليه‌السلام: إذا أحب الله عبداً رزقه قلباً سليماً، وخلقاً قويماً.

كيف نتحبب إلى الله؟

ذكرنا قبل هذا أن الله يتحبب إلى عباده «تتحبب إلينا بالنعم، ونعارضك بالذنوب». ومن شقاء العبد وبؤسه أن يتحبب الله تعالى إليه، وهو الغني عن عباده ولا يتحبب العبد إلى مولاه، وهو الفقير إليه عز شأنه.

إذن نتساءل كيف يتحبب العبد إلى ربه؟

بين أيدينا نص من حديث قدسي بالغ الأهمية، وقد استفاضت رواية هذا النص عن رسول الله عن طريق ثقات المحدثين. ولست أشك في صحة رواية هذا الحديث القدسي عن رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عن الله، نظراً لتواتر روايته في كتب الفريقين المعتمدة. وهذا النص يوضح لنا كيف نتحبب إلى الله. وإليكم هذا النص برواية البرقي عن الإمام الصادق عليه‌السلام عن رسول الله صلى‌الله‌عليه وآله‌وسلم، وهو بعض طرق هذا النص.

قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: قال الله: ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه. ومايزال عبدي يتقرب إليّ بالنافلة حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر، ولسانه الذي ينطق، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها.

وهذا النص يتضمن مجموعة من النقاط، نشير إليها إجمالاً، وأولى هذه النقاط: أن أكثر وأبلغ ما يتقرب به العبد، ويتحبب به إلى الله هو الفرائض. وهذه خصوصية للفرائض ـ من صلاة، وصوم، وحج، وزكاة، وخمس، وما عدا ذلك من الفرائض ـ لا توجد في غيرها.

والنقطة الأخرى دور «النافلة» في تقريب العبد إلى الله، وتحبيبه إليه، وهو يأتي في سلسلة أسباب القرب والحب، بعد دور الفريضة. ولا يزال العبد يواظب على النوافل، ويستمر عليها حتى يحبه الله.

والنقطة الثالثة في هذا النص عن نتائج وآثار حب الله تعالى لعبده.

فمن يكون الله تعالى لسانه الذي به ينطق، لا يقول إلّا الحقّ، ولا يتحرك لسانه في لغو أو باطل، ولا يفتر لسانه عن ذكر الله، ومن يكون الله تعالى يده التي بها يبطش، لا يُغلب، ولا يقهر. ومن يكون الله تعالى سمعه الذي به يسمع، وعينه التي بها يبصر، لا يلتبس عليه الحقّ بالباطل، ويرى الحق حقاً، والباطل باطلاً، ويسمع الكلام، فيميز حقه من باطله، وصدقه من كذبه، وهواه من ضلاله، ويرى الناس، فيميز المؤمنين منهم عن المنافقين، والصادقين عن الكاذبين، ويسير في حياته كلها بنور الله، وهديه، وهدايته، ودلالته، فلا يتيه، ولا يضل.

النقطة الرابعة في هذا الحديث الشريف استجابة الله تعالى لدعائهم: «إذا دعاني أجبته، وإذا سألني أعطيته».

وفي أولياء الله وعباده الصالحين من لا يرد الله تعالى لهم دعاءً، ولا يخيب لهم ظناً، ولا يكلهم لأنفسهم طرفة عين، يعصمهم، ويسددهم، ويأخذ بأيديهم، ويمنحهم البصيرة، والهدى، ويسيرهم على صراطه المستقيم، ويملأ قلوبهم نوراً وهدى. أولئك الذين يحبون الله، فيحبهم الله.

حجب الحب وموانعه

تحدثنا عن أسباب حب الله وموجباته، وآثاره ونتائجه في حياة الإنسان. ومن الحق أن نتحدث إلى جنب ذلك عن الموانع والحجب التي تحجب قلب العبد عن حب الله تعالى ليستطيع الإنسان أن يتلافاه ويتجنبه. وأهم حجابين يحجبان القلب عن حب الله تعالى هما الذنوب والمعاصي التي ترين على القلب أولاً. وحب الدنيا والتعلق بها ثانياً.

أما الذنوب والمعاصي فإنها ترين على القلب، وتفقده نقاءه وصفاءه، وشفافيته وتكدر القلب وتعكره. يقول تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾[١٠٥].

وإن الإنسان ليذنب الذنب، فيكون الذنب نقطة سوداء في قلبه، فإذا واصل المعصية، ولم يتب ولم يقلع عن الذنب اتسعت هذه النقطة السوداء، حتى تشمل القلب.

روى ابن عمير عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: ما أحب الله عزّ وجل من عصاه ثم تمثل فقال:

تعصي الآله وأنت تظهر حبه
هذا محال في الفعال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته
إن المحب لمن يحب مطيع[١٠٦]

والحجاب الآخر الذي يحجب حب الله عن قلب العبد هو حب الدنيا والتعلق بها فإن الله تعالى لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾[١٠٧].

فإذا خلا القلب لله تعالى أقبل العبد على حب

الله بكل قلبه، وتفرغ القلب لحب الله، وإذا شغله شاغل من هم، أو حب، أو تعلق بشأن من شؤون الدنيا انصرف بمقداره عن حب الله، فإذا انصرف قلب الإنسان إلى الدنيا، وشغلته شواغل الدنيا وهمومها، انسلخ بشكل كامل عن حب الله، وفقد لذة حب الله، وتبلد، وأصبح لا يتذوق حلاوة حب الله وذكره.

وإلى هذا المعنى تشير النصوص الإسلامية، وفيما يلي نذكر طائفة منها:

عن رسول الله: «حب الدنيا وحب الله لا يجتمعان في قلب أبداً»[١٠٨].

روي أنه قيل لعيسى بن مريم عليه‌السلام: علمنا عملاً واحداً يحبنا الله عليه، قال: أبغضوا الدنيا يحببكم الله[١٠٩].

وعن الإمام الصادق عليه‌السلام: إذا تخلى المؤمن عن الدنيا سما، ووجد حلاوة حب الله[١١٠].

والتعبير في الحديث دقيق؛ فإن حب الدنيا يفقد الإنسان الإحساس بحلاوة حب الله، ومن فقد الإحساس بحلاوة حب الله، لم يقبل قلبه على حب الله. ومن أخلى قلبه من حب الدنيا وجد حلاوة حب الله.

وعن الإمام علي عليه‌السلام: كيف يدعي حب الله من سكن على حب الدنيا[١١١].

وعن الإمام علي عليه‌السلام أيضاً: كما أن الشمس والليل لا يجتمعان كذلك حب الله وحب الدنيا لا يجتمعان[١١٢].

وعن الإمام الصادق عليه‌السلام: والله ما أحب الله من أحب الدنيا ووالى غيرنا[١١٣].

وعن الإمام علي عليه‌السلام: من أحب لقاء الله سلا عن الدنيا[١١٤].

وعن الإمام علي عليه‌السلام أيضاً: إن كنتم تحبون الله فأخرجوا من قلوبكم حب الدنيا[١١٥].

وقد ورد في الدعاء كثيراً التضرع إلى الله أن يخرج الله حب الدنيا من قلب العبد.

ففي دعاء الأسحار للإمام زين العابدين عليه‌السلام: سيدي أخرج حب الدنيا من قلبي، واجمع بيني وبين المصطفى وآله، وانقلني إلى درجة التوبة إليك، وأعنّي بالبكاء على نفسي فقد أفنيت بالتسويف والآمال عمري.

أسأل الله تعالى أن يخرج حب الدنيا من قلوبنا، ويرزقنا الزهد فيها، ويرزقنا حبه وحب رسوله المصطفى، وأهل بيته الطاهرين وأوليائه وأحبائه. والحمد لله رب العالمين

الهوامش

١. سورة المائدة، الآية ٣٥.
٢. سورة الإسراء، الآية ٥٧.
٣. سورة الشعراء، الآية ٨٠.
٤. من أدعية شهر رجب.
٥. سورة الأنبياء، الآيتان ٨٣ـ٨٤.
٦. سورة الأنبياء، الآيتان ٨٧ـ٨٨.
٧. سورة طه، الآيات ٤٣ـ٤٥.
٨. سورة طه، الآية ٤٦.
٩. سورة هود، الآية ٤٥.
١٠. سورة إبراهيم، الآية ٣٧.

١١. سورة المزمل، الآيات ١ ـ ٧.
١٢. نهج البلاغة، تحقيق صبحي الصالح، خ ١٩٣.
١٣. سورة التوبة، الآية ٣٨.
١٤. ليس معنى التحرر من الدنيا ترك الدنيا، فقد كان رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم متحرراً من الدنيا، وهو يعمل لتمكين الدعوة من الدنيا وإخضاع الدنيا.
١٥. سورة التوبة، الآية ٢٤.
١٦. سورة البقرة، الآية ١٦٥.
١٧. سورة آل‌عمران، الآية ١٤.
١٨. بحار الأنوار ٧٠: ٢٤ ـ ٢٥.
١٩. سورة آل‌عمران، الآية ٣١.
٢٠. كنز العمال ٢: ٢٠٩ ح ٣٧٩٤.
٢١. كنز العمال ٢: ١٩٥.
٢٢. كنز العمال ٢: ١٨٢.
٢٣. سورة التوبة، الآية ٢٣.
٢٤. تفسير نور الثقلين ٢: ١٩٥.
٢٥. نهج البلاغة، ١: ٩١ ـ ٩٢ خ ٥٢.
٢٦. سورة هود، الآيتان ٤٥ ـ ٤٦.
٢٧. عيون أخبار الرضا: ٢٢٤.
٢٨. الاختصاص للمفيد: ٣٤١.
٢٩. بحار الأنوار ٧٠: ١٤ باختلاف يسير في اللفظ عن المتن الموجود هنا، ويقول الشيخ عبدالحسين الأميني في كتابه «سيرتنا» ص ٨ في تخريج هذا الحديث: فأخرجه جمع من الحفاظ وأئمة الحديث بأساليب صحيحة رجالهم كلها ثقات. راجع سنن الترمذي ١٣: ٢٠١ الجزء الأول والثالث من المعجم الكبير للطباطبائي، مستدرك الحاكم ٣: ١٤٩، تاريخ بغداد ٤: ١٦٠ إلى مصادر أخرى تناهز ثلاثين مصدراً.
٣٠. أمالي الصدوق ص ٨. أصول الكافي ٢: ١٢٥.
٣١. بحار الأنوار ٧٤: ٣٩٩ عن المحاسن ٢٦٤.
٣٢. أمالي الصدوق: ٣٤٥.
٣٣. أمالي الصدوق: ٣٦٠.
٣٤. تحف العقول: ٤٧٩.
٣٥. المحاسن: ٢٦٣.
٣٦. أصول الكافي ٢: ١٢٥.
٣٧. أصول الكافي ٢: ١٢٥.
٣٨. أصول الكافي ٢: ١٢٦.
٣٩. أصول الكافي ٢: ١٢٦.
٤٠. أصول الكافي ٢: ١٢٧.
٤١. جامع الأخبار: ١٩٤.
٤٢. أي: برهان ودليل على إسلامك.
٤٣. بحار الأنوار ٩٦: ٢٥٢ ـ ٢٥٣.
٤٤. سورة الأنفال، الآية ٧٢.
٤٥. سورة البقرة، الآية ١٢٠.
٤٦. سورة المائدة، الآية ٥١.
٤٧. سنن الترمذي ٥: ٦٦٤ ح ٣٧٨٩ ط. شركة مصطفى الجلبي، المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري ١٥٠٣ ـ قال الحاكم: وهذا حديث صحيح الإسناد لم يخرجاه. بحار الأنوار ٧٠: ١٤. أمالي الصدوق: ٢١٩. علل الشرائع. ١: ١١٣. أمالي الطوسي ١: ٢٨٥. بشارة المصطفى: ١٦١.
٤٨. المستدرك على الصحيحين ٣: ١٤٩.
٤٩. المستدرك على الصحيحين ٣: ١٤٩ قال الحاكم: هذا حديث حسن من حديث أبي عبدالله أحمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل ح ٤: ٢٨١.
٥٠. مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤: ٣٧٢ وقد أخرج الفقيد السعيد الشيخ عبدالحسين الأميني حديث الغدير عن مئة طريق فزائداً في كتابه القيم (الغدير) الجزء الأول منه.
٥١. صحيح البخاري ١: ٦ ط. دار الطباعة سنة ١٢٨٦.
٥٢. صحيح مسلم ١: ٤٩ ط. دار الفكر بيروت، ورواه في كنز العمال ١: ٣٧. حديث ٧٠.
٥٣. رواه الشيخ عبدالحسين الأميني في كتابه سيرتنا وسنّتنا سيرة نبينا وسنّته ص ١١ عن النصيبي في الجزء الثاني من أحاديثه، والحافظ البيهقي ←

← في شعب الإيمان، والديلمي في مسنده، ورواه العلامة المجلسي في البحار باختلاف يسير ٢٧: ١٣.
٥٤. أصول الكافي ٢: ٤٠٨، وبحار الأنوار ٧٣: ٢٨٨.
٥٥. سورة الحجرات، الآية ٩.
٥٦. سورة البقرة، الآية ١٦٥.
٥٧. بحار الأنوار ٧٠: ٢٥.
٥٨. كنز العمال ج ٤٧: ٤٩.
٥٩. بحار الأنوار ٩٨: ٨٩.
٦٠. بحار الأنوار ٩٧: ٣٣٤.
٦١. كنز العمال ج ٤٧: ٤٩.
٦٢. غرر الحكم للآمدي.
٦٣. المصدر نفسه.
٦٤. بحار الأنوار ٧٤: ٣٩٨.
٦٥. المصدر السابق: ٧٤: ٣٩٩.
٦٦. بحار الأنوار ح ٩٨: ٢٢٦.
٦٧. بحار الأنوار ٩٨: ٨٥.
٦٨. مفاتيح الجنان ١٨٠.
٦٩. سورة الزخرف، الآيتان ١٢ـ١٣.
٧٠. بحار الأنوار ٧٠: ١٨ـ٢٢.
٧١. سورة النساء، الآية ١١٠.
٧٢. سورة الأعراف، الآية ٩٤.
٧٣. بحار الأنوار ٩٨: ٨٩.
٧٤. كنز العمال ح ٣٧١٨.
٧٥. مفاتيح الجنان ١٢٣.
٧٦. سورة إبراهيم، الآية ٧.
٧٧. سورة العلق، الآيتان ٦ـ٧.
٧٨. سورة النحل، الآية ١٨.
٧٩. سورة لقمان، الآية ٢٠.
٨٠. أمالي الشيخ الطوسي ٢: ١٠٥.
٨١. الصحيفة السجادية ص ٢٤.
٨٢. سورة آل‌عمران، الآية ٣١.
٨٣. بحار الأنوار ٧٠: ٢٣.
٨٤. المصدر السابق.
٨٥. كنز العمال، ح ١٧٧٦.
٨٦. تنبيه الخواطر: ٣٣٢.
٨٧. بحار الأنوار ٧٠: ١٤.
٨٨. مفاتيح الجنان ـ دعاء كميل.
٨٩. زيارة أمين الله في مفاتيح الجنان.
٩٠. بحار الأنوار ٧٧: ٤٢.
٩١. سورة آل عمران، الآية ٣١.
٩٢. بحار الأنوار ٧٠: ٢٥.
٩٣. كنز العمال ح: ١٧٧٦.
٩٤. بحار الأنوار ح ٩٣: ١٦٠.
٩٥. بحار الأنوار ٧٠: ٢٣.
٩٦. بحار الأنوار ٧٣: ٥٦.
٩٧. سورة المائدة، الآية ٥٤.
٩٨. بحار الأنوار ٧٠: ١٨.
٩٩. بحار الأنوار ٧١: ١٥٦ وهذا التماثل في النسبة وليس في الكم.
١٠٠. المصدر السابق ٧١: ١٨.
١٠١. المصدر السابق ٧١: ٢٥.
١٠٢. المصدر السابق ٧٠: ٢٦.
١٠٣. بحار الأنوار ١٠٣: ٢٦.
١٠٤. غرر الحكم للآمدي.
١٠٥. سورة المطففين، الآية: ١٤.
١٠٦. أمالي الصدوق ٢٩٣ ط. الحجرية.
١٠٧. سورة الأحزاب، الآية ٤.
١٠٨. تنبيه الخواطر ٣٦٢.
١٠٩. بحار الأنوار ١٤: ٣٢٨.
١١٠. أصول الكافي ٢: ١٣٠.
١١١. غرر الحكم.
١١٢. المصدر السابق.
١١٣. بحار الأنوار ٧٨: ٢٦.
١١٤. غرر الحكم.
١١٥. المصدر السابق.